مجاناً مع

القاهرة

وكتب للجميع ٣٠

هدية العدد «٢٢٢» ١٣ يوليو ٢٠٠٤

الحب الأول

إيفان ترجنيف

تعريب: محمود عبد المنعم مراد

الحب الأول

مجانا مع جريدة القاهرة

القاهرة

رئيس مجلس الإدارة
فاروق عبد السلام

رئيس التحرير
صلاح عيسى

تصميم الغلاف : **محمد الغول**

م . جرافيك : **محمد شرف**

جريدة اسبوعية ثقافية عامة

تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة
الإدارة والتحرير :
٩ ش حسن صبرى . الزمالك
القاهرة . جمهورية مصر العربية
هاتف : ٧٣٧٣٠٤١
فاكس : ٧٣٧٣٠١٨
E-mail: alkahera@idsc.net.eg



سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

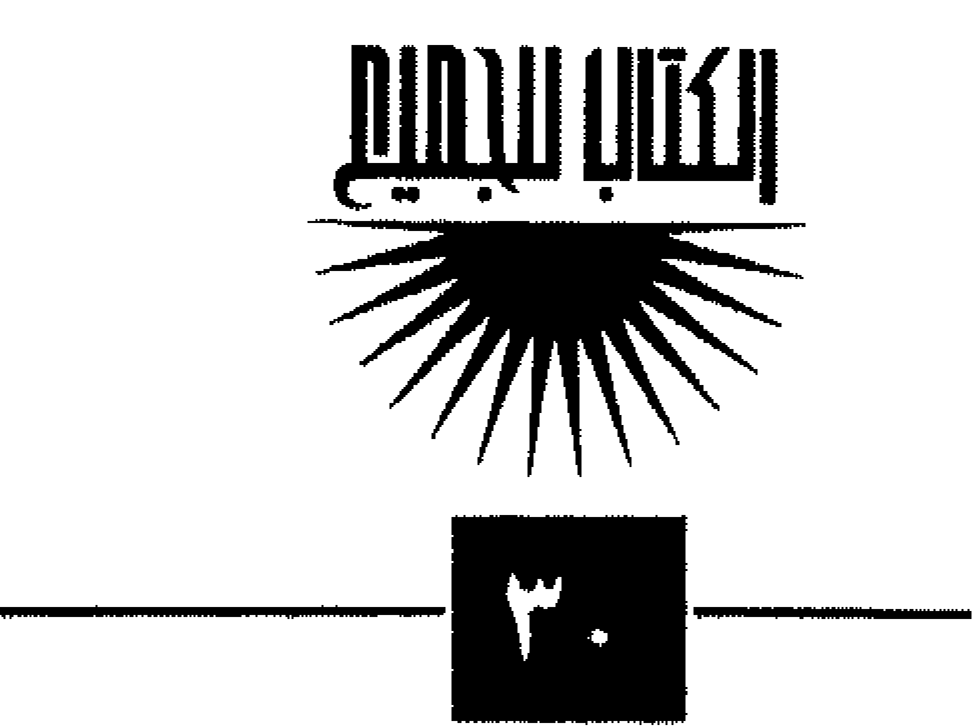
رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص . ب : ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦
تلفون . ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
تلفاكس ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail.al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السمير
E-mail almada112@yahoo com



إيفان ترجنيف

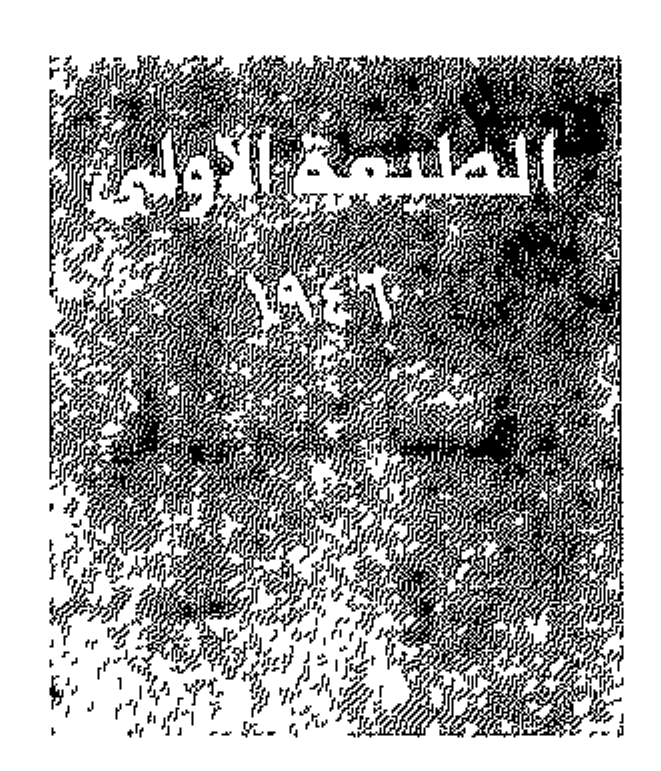
الحب الأول

تعريب

محمود عبد المنعم مراد

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (القاهرة)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٤



1

كانت الجماعة قد تفرقت من زمن طويل . ودقت الساعة الثانية عشرة والنصف . ولم يبق في الحجرة سوى رب الدار ، وسرجي نيكولايفتش ، وفلاديمير بتروفتش .

دق رب الدار الجرس ، وأمر أن تزال بقايا العشاء . ثم قال وهو يضطجع في كرسيه الوثير ، ويشعل سيجارا : "اتفقنا ، فعلى كل منا أن يروي قصة حبه الأول . هذا دورك يا سرجي نيكولايفيتش" .

كان سرجي نيكولايفيتش رجلا صغيرا بدينا ، مطهم الوجه أشقره . تفرس أولا في رب الدار ، ثم رفع ناظريه إلى السقف . وأخيرا قال : "ليس لي حب أول . لقد بدأت بالثاني" .

– وكيف كان ذلك ؟

– الأمر بسيط جدا . كنت في الثامنةَ عشْرةَ من عمري ، حين عرفت الغزل أول مرة مع فتاة جذابة ، ولكني غازلتها كأن ذلك لم يكن شيئاً جديداً عليّ ،ومثلما غازلت غيرها من بعد . وإن شئتم الدقة ،فإن حبي الأول والأخير ، كان لمربيتي ، وأنا في السادسة من عمري . لكن هذا عهد بعيد . وإن تفاصيل علاقتنا ،قد ندت عن ذاكرتي . ولو أني تذكرتها، فمن ذا الذي يشوقه أن يسمعها ؟

بدأ رب الدار يقول : إذن ، فما تقول في قصتي ؟ لم يكن في حبي

الأول ما يشوق أيضا . فأنا لم أحب أحدا قط ، حتى قابلت أنا نيكولايفنا - زوجتي الآن- وجرت أمورنا في يسر ، وهيأ لنا أهلنا سبيل الزواج ، فسرعان ما تحابينا ، وسرعان ما تزوجنا . فقصتي يمكن أن تروى في كلمتين اثنتين . يجب أن اعترف أيها السيدان ، بأني حين أثرت موضوع الحب الأول ، كنت أعتمد عليكما ، أيها العازبان اللذان جاوزا سن الشباب ، ولا أقول -الشيخان- ألا تستطيع أن تطرفنا بشيء يا فلاديمير بتروفيتش ؟

كان فلاديميربتروفيتش رجلا في الأربعين ، ذا شعر فاحم دب فيه الشيب . أجاب في شيء من التردد :" لا شك في أن حبي الأول ، لم يكن حباً عادياً" .

فقال رب الدار ، وسرجي نيكولايفتش في صوت واحد : "آه ، إن هذا أفضل . حدثنا" .

- إن شئتما ذلك . . .أو . . . لا . لن أروي القصة . لست بارعا في سرد القصص . إني أجعل القصة جافة مختصرة ، أو مطولة متكلفة . فإذا أذنتما لي- كتبت كل ما أذكره ، وقرأته عليكما .

لم يقبل صاحباه أول الأمر ، لكن فلاديمير بتروفتش أصر على طريقته الخاصة به . واجتمعوا مرة أخرى بعد أسبوعين . وبرّ فلاديمير بتروفتش بوعده .

كان في مخطوطه القصة التالية :

١

حـدث هذا في صـيـف عـام ١٨٣٣ . وكـنت وقـتـئـذ في الســادسـةَ عَـشْـرَةَ . كنت أعـيش في مـوسكو مع أبويَّ .وكـانا قـد اسـتـأجـرا لقـضـاء الصيف منزلا ريفيا بالقـرب من بوابة كالوجا ،تجاه حدائق نسكتشني .
كنت أعد نفسي للجامعة ، ولكني لم أعمل كثيرا ، ولم أتعجل .
لم يعترض أحد سبيل حريتي . كنت أفعل ما أشاء ، وبخاصة بعد أن افترقت عن مربيَ الأخير ، وهو رجل فرنسي لم يستطع قط أن يألف هذه الفكرة ، وهي أنه قد سقط في روسيا "كالقنبلة" ، وربما رقد كسلان أياما متواصلة في الفراش ، ووجهه يعبر عن الحنق .كان أبي يعاملني بلطف ، ولكن دون اكتـراث ؛ وقلمـا كـانت أمي تلحظني ، وإن لم يكن لهـا ولد غيري ، لقد استغرقتها مشاغل أخرى . تزوجها أبي ، وكان لا يزال شابا وسيما ، لاعتبارات مالية خاصة . وكانت تكبره بعشرة أعوام . وعاشت أمي حياة كئيبة ؛ فكانت دائما مروعة ،غيورا ، غضبى ،لكن في غير وجود أبي . وكانت تخافه خوفا شديدا ، وكان هو قاسيا باردا ، متحفظا في سلوكه . . . لم أر قط رجلا أكثر منه توقرا ، وثقة بالنفس ، وفرضا لها .
لن أنسى ما حـييت ،الأسـابيع الأولى التي قـضـيـتـهـا في المنزل الريفي . كـان الجـو رائـعـا ،تركنا المدينة في التـاسع من مـايو ، في يوم القديس نيكولا . كنت أجول في حديقتنا ، وفي حدائق نسكتشني ، وفيما

وراء بوابات المدينة ؛ وربما أخذت كتابا معي - دروس كيدانوف مثلا- لكني قلما كنت أنظر فيه ، بل كنت غالبا ما أنشد الأشعار بصوت عال . وكنت أحفظ قدراً كبيراً من الشعر عن ظهر قلب . كان دمي يفور ، وقلبي يتحرق ، وكم كان هذا حلوا مدهشا! كنت كلي أملا وترقبا ، وكنت أخاف بعض الخوف من شيء ما ، وأحس بالروعة في كل شيء ، ويغمر التهيُّب قلبي . كان خيالي دائما يمرح ، ويرفرف مسرعا حول صور بذاتها ، كما تخفق الخطاطيف حول برج الكنيسة في الفجر ؛ كنت أحلم ، وكنت حزيناً ، بل كنت أبكي . لكنني خلال الدموع ، وخلال الحزن ، كان الشعر الموسيقي أو جمال المساء يلهمني ، فينبثق فيّ الإحساس اللذيذ بالشباب والحياة الفائرة ، كالعشب إبّان الربيع .

كان لي جواد أركبه ، وكنت أسرجه بنفسي ، وأنطلق وحيداً أقطع مسافات طويلة ، وأركض ركضاً سريعاً ، وأتخيل نفسي فارساً يصول ويجول . ما كان أبهج الريح حين تصفر في أذني! أو أحول وجهي نحو السماء فأذوِّب سناها المشرق وزرقتها في نفسي ، التي تتفتح مرحبة بها .

أذكر أنني في ذلك الحين ، لم أكد أتمثل في خاطري ، صورة واضحة محدودة للمرأة أو رؤيا الغرام . لكن أفكاري ومشاعري جميعا ، كانت تنطوي على هاجس حيّ شبه واع ، هاجس بشيء جديد ، شيء حلو لثوي . . .

شاع ذلك الهاجس ، ذلك التوقع ، في كل كياني ، كان في الهواء الذي كنت أنسمه ، وجرى خلال عروقي في كل قطرة من دمي . . . وقدر له أن يتحقق سريعاً .

كان المكان الذي أقمنا فيه نصطاف منزلا ريفيا من الخشب ، ذا أعمدة ومسكنين صغيرين . وكان في المسكن الأيسر ، مصنع حقير لورق الجدران الرخيص . . . سرت في تلك الناحية أكثر من مرة ، لأرى قرابة اثني

عشر صبياً نحيفاً مشعثاً ، بأقمصة لوثها الدهن ، ووجوه مجهدة ، كانوا دائما ينطون فوق عتلات من الخشب ، تضغط الألواح المربعة للمطبعة، وهكذا ، يطبعون بثقل أجسامهم الضعيفة ، تلك النماذج الملونة ، لورق الجدران . وبقي المسكن الأيمن خاليا ، كان للإيجار ، وفي يوم ما – بعد ثلاثة أسابيع من التاسع من مايو رُفعت الستائر من نوافذ هذا المسكن ، وبدت فيها وجوه نساء – سكنته أسرة ما . أذكر أنه في ذلك اليوم ، حين كنا على الغداء ، سألت أمي خادمنا : مَنْ جيراننا الجدد ، فلما سمعت اسم الأميرة زاسيكن ، قالت أولا في شيء من الاحترام : آه – أميرة . . . ثم أضافت : أميرة فقيرة ، أظن ذلك ؟

فقال الخادم في احترام وهو يقدم صحناً : لقد وصلوا في ثلاث عربات مأجورة ، فليست لهم عربة خاصة ، وأثاثهم من أحقر الأثاث .

أجابت أمي : آه ، هذا أفضل .

ورمقها أبي بنظرة باردة ، فلزمت الصمت .

حقا ، كيف تكون الأميرة زاسيكن سيدة غنية . والمنزل الذي استأجرته كان متداعياً صغيرا وطيئاً ، حتى لا يكاد يرضى بسكناه أوساط الناس . ومهما يكن ، فقد كنت حينذاك أسمع كل هذا بأذن غير واعية . ولم يكن للقب الإمارة أثر كبير عليّ ، إذ كنت في ذلك الوقت ، أقرأ كتاب "اللصوص" لشيلر .

٢

اعتدت التجول في حديقتنا كل مساء أصيد الغربان . طالما كنت أضمر البغض لهذه الطيور الحذرة الماكرة الخطافة . وفي ذلك اليوم الذي تحدثت عنه ، ذهبت كعادتي إلى الحديقة ، وبعد أن طفت بجميع الدروب دون جدوى (فقد عرفتني الغربان ، وكان همها أن تنعب نعيباً متقطعاً على مسافة مني) حدث أن اقتربت من السياج الوطيء الذي كان يفصل بيننا وبين حديقة صغيرة ، تتبع المسكن الأيمن ، وتمتد وراءه . كنت ماشيا وعيناي إلى الأرض . وفجأة سمعت صوتا ، ونظرت خلال السياج ، فصعقت . . . لقد واجهني مشهد غريب .

على بضع خطوات مني ، وعلى العشب النامي بين شجيرات العليق الخضراء ، وقفت فتاة طويلة هيفاء ، ترتدي ثوباً مخططاً وردي اللون ، وعلى رأسها منديل أبيض . التف حولها أربعة شبان ، وكانت تلطمهم على وجوههم واحداً بعد واحد ، بتلك الأزهار الصغيرة الشهباء ، التي لا أعرف اسمها ، وإن كان الأطفال يعرفونها جيدا-هي أزهار تشبه أكياسا صغيرة ،وتنفجر مصوتة إذا ضربتها في شيء صلب . قدم الشبان جباههم في تلهف ، وكان في حركات وجه الفتاة (وكنت أراه من جانب) شيء فاتن ، جبار ، لطيف ، ساحر ، جذاب ، حتى كدت أصيح إعجابا وابتهاجا ، وخلتني قد أهب كل شيء في الحياة ، لأظفر بتلك الأصابع الغالية،

تضربني على جبهتي .سقطت بندقيتي على العشب ، ونسيت كل شيء ، والتهمت بعينيَ تلك الطلعة اللطيفة ، والجيد والذراعين الحبيبتين ، والشعر الأشقر المشعث بعض الشيء ، تحت المنديل الأبيض ، والعين الذكية المسبلة ، والأهداب ، وتحتها الوجنة الناعمة . . .

وفجأة سمعت صوتاً بالقرب مني : أيها الشاب ، أنت أيها الشلب ، هل يجوز أن تحملق هكذا في فتيات لا تعرفهن ؟

أُخذت ، وانعقد لساني . . .كان بالقرب مني ، في الناحية الأخرى من السياج ، رجل ذو شعر فاحم قصير ، يقف ناظرا إليَّ في سخرية . وفي اللحظة نفسها ، التفتت الفتاة كذلك نحوي . . فلمحت عينين واسعتين رماديتين في وجه وضاء رفاف ، واهتز الوجه كله فجأة وضحك ، فإذا بوميض من أسنان بيض ، ونهزة ظريفة من الحاجبين . . .تخضب وجهي ، والتقطت بندقيتي من الأرض ، وأسرعت إلى حجرتي تتبعني ضحكة موسيقية ، لكن لا خبث فيها ، ورميت نفسي فوق الفراش ، وأخفيت وجهي بين يديّ ، كان قلبي يكاد يقفز من صدري ، وكنت شديد الخجل ، وقد غمرني السرور وأحسست بفورة لم أعهدها من قبل .

وبعد أن استرحت ، مشطت شعري ، واغتسلت ، وهبطت الدرج لأتناول الشاي . كانت صورة الفتاة الصغيرة تسبح أمامي ، ولم يعد قلبي يخفق ، بل فاض بنوع من الضيق الحلو .

سألني أبي على الفور : ماذا بك ؟ أقتلت غراباً؟

كنت على وشك أن أحدثه بالأمر كله ، لكنني تمالكت واكتفيت بأن بسمت لنفسي . وحين كنت ذاهباً إلى فراشي ، درت – لا أعلم لماذا- ثلاث مرات على قدم واحدة ، ودهنت شعري ، واستلقيت على فراشي ، ونمت كالحجر طول الليل – وقبل الصباح ، استيقظت لحظة ، ورفعت رأسي ، ونظرت حولي في نشوة ، ورحت في النوم مرة أخرى .

٣

"كيف أتعرف بهم ؟"- تلك كانت أولى أفكاري عندما صحوت في الصباح ،خرجت إلى الحديقة قبل شاي الصبح .لكني لم أدن من السياج ، ولم أر أحدا . وبعد أن شربت الشاي ، ذرعت الشارع مرات عدّة ،جيئة وذهوبا ، أمام المنزل ، ونظرت إلى النوافذ من بعيد . . . تخيلت وجهها عند إحدى الستائر ، فانطلقت مسرعاً في خوف .

"ومع هذا ، لا بد أن أتعرف بها" . هكذا جال بخاطري ، وأنا أخطو متحيراً على السهل الرملي المنبسط أمام حدائق نسكتشني . . .لكن ، كيف ، تلك هي المسألة" .

استعدت أدق تفاصيل لقائنا أمس . واستطعت لسبب ما أن أتمثل صورة ناطقة حية للطريقة التي ضحكت بها مني . . .لكن بينما كنت أضني عقلي ، وأرسم شتى الخطط ، أمدني القدر بعون من عنده .

تلقت أمي من جارتها أثناء غيابي ، خطابا كتب على ورق أشهب ، وختم بالشمع البني الذي لا يستعمل إلا في إخطارات البريد ، وأغطية زجاجات النبيذ الرخيص . كان الخطاب مكتوباً بلغة عامية ، وخط رديء ، توسلت فيه الأميرة إلى أمي أن تساعدها بنفوذها القوي . كانت أمي - على حد قول الأميرة - وثيقة الصلة بأشخاص ذوي مكانة عالية ، يتوقف عليهم حظها وحظ أبنائها ، إذ إنها كانت بسبيل إنجاز أمر بالغ الأهمية .

كتبت تقول : إني أتقدم إليك ، سيدة كريمة إلى سيدة كريمة ، ولهذا يسعدني أن أنتفع بهذه الفرصة .وختمت خطابها بأن توسلت إلى أمي أن تأذن لها بالزيارة .

وجدت أمي مترددة مهمومة ؛ لم يكن أبي بالمنزل ، ولم تجد أحداً تسأله النصح وكان مستحيلا ألا ترد على سيدة ، بل أميرة . لكن أمي أشكل عليها كيف ترد . رأت أنه لا يليق أن تكتب إليها رقعة بالفرنسية ، ولم تكن أمي نفسها متمكنة من الهجاء الروسي ،وكانت على علم بهذا ، ولم يهمها أن تبدي قصورها .

فاض بها السرور حين ظهرتُ ، وقالت لي على الفور ، أن أنثني إلى بيت الأميرة وأشرح لها شفاهاً أن أمي يسعدها دائما أن تقدم لسموها أي خدمة تستطيعها ،وأنها ترجوها أن تأتي لزيارتها في الساعة الواحدة .وقد سرني - كما روّعني- ذلك الإشباع السريع المفاجئ لرغباتي الخفية . ومهما يكن من أمر ، فإني لم أبدِ ما يدل على القلق الذي تملكني ؛وخطوت الخطوة الأولى بأن ذهبت إلى غرفتي لألبَس رباطاً جديداً للرقبة وسترة طويلة ؛ وكنت لا أزال على مضض مني ، ألبس في المنزل سترات قصاراً ، ورباقات مفتوحة .

٤

دخلت المسكن ترتجف أعضائي كلها رغماً مني ،فقابلني في الممر الضيق غير المنظم ، خادم عجوز ذو رأس أشيب ووجه نحاسي قاتم ، وعينين كعيني خنزير ،صغيرتين جافتين ،وأخاديد عميقة في جبهته وعارضيه لم أر مثلها طوال حياتي ، كان يحمل طبقاً فيه أشواك رنجة قرض ما حولها ، قال وهو يغلق بقدمه الباب المؤدي إلى الحجرة :

– ماذا تريد ؟

سألت : هل الأميرة زاسيكن هنا ؟

فصاحت قرقعة صوت أنثوي من الداخل : فونيفاتي!

أدار لي الرجل ظهره في صمت ،فأبدى لي كسوته بذيلها البالغ الرثاثة ، وفيه زر واحد ضارب إلى الحمرة ،يحمل شعار الأسرة . ووضع الطبق على الأرض ، وذهب .

نادى الصوت الأنثوي نفسه مرة أخرى : هل ذهبت إلى مركز الشرطة ؟ وتمتم الرجل ببضع كلمات يرد عليها .فسمعت مرة أخرى : آه ، هل جاء أحد ؟ . . . ذلك الشاب من المسكن المجاور ، أدخله إذن .

قال الخادم وهو يعاود الظهور ، ويتناول الطبق من الأرض : هل تدخل حجرة الجلوس ؟

ضبطت عواطفي ودخلت الحجرة .

وجدتني في مسكنٍ صغير ، غير مفرط النظافة ، يحتوي بعض الأثاث الحقير الذي بدا وكأنه أُنزل بسرعة إلى الأرض حيث كان . كانت تجلس في مقعد بالقرب من النافذة ، امرأة في الخمسين بذراع مكسورة ، وكانت دميمة حاسرة الرأس ، تلبس ثوباً عتيقاً أخضر ، وحول عنقها شملة صوفية مخططة ، أثبتت فيّ عينيها الصغيرتين السوداوين كأنهما المسامير .

تقدمت إليها وانحنيت .

– ألي الشرف أن أخاطب الأميرة زاسيكن ؟

– أنا الأميرة زاسيكن . وأنت ابن السيد ف . ؟

– أجل . لقد جئتك برسالة من والدتي .

– اجلس . تفضل . فونيفاتي ، أين مفاتيحي ، هل رأيتها ؟

وأبلغت المدام زاسيكن رد أمي على رسالتها . كانت تستمع إلي وهي تنقر بأصابعها الغليظة الحمراء على زجاج النافذة ، فلما انتهيت ، حدقت فيّ مرة أخرى .

وأخيرا قالت : حسن جداً ؛سآتي دون شك . لكن ما أصغرك! هل لي أن أسألك كم عمرك ؟

أجبت متلعثماً بالرغم مني : ستة عشر .

وأخرجت الأميرة من جيبها أوراقاً مزيتة مغطاة بالكتابة ، ورفعتها حتى أنفها ، وأخذت تنظر فيها .

هتفت فجأة وهي تتململ في مقعدها : سن طيبة . أرجو أن ترفع الكلفة . أنا لا أتقيد بالرسميات .

– كلا دون شك .

جال ذلك في خاطري ، وأنا أتفرس في شخصها المنفر باحتقار لم أستطع كبحه .

وفي تلك اللحظة فتح بسرعة باب آخر ووقفت بالعتبة تلك الفتاة

التي رأيتها في المساء السابق بالحديقة . رفعت يدها ، وأشرقت في وجهها بسمة ساخرة .

قالت الأميرة مشيرة إليها بمرفقها : تلك هي ابنتي . زينو تشكا ، هذا ابن جارنا السيد ف . ما اسمك ، أتسمح لي بسؤال ؟

أجبت وأنا أنهض متلجلجاً من اضطرابي : فلاديمير .

– وما اسم أبيك ؟

– بتروفيتش .

– آه! إني أعرف قوميسيرا للبوليس كان اسمه فلاديمير بتروفيتش أيضا .

فونيفاتي! لا تبحث عن مفاتيحي . إنها في جيبي .

وظلت الفتاة الصغيرة تنظر إليّ بالبسمة عينها ، وهي ترف قليلا بأهدابها وتميل برأسها بعض الميل .

بدأت تقول :لقد رأيت السيد فولدمار من قبل (ونفذت الرنة الفضية لصوتها إلى أعماقي بنوع من الرجفة الحلوة) . هل تدعني أناديك بهذا الاسم ؟

قلت متلعثماً : أوه ، أرجوك .

سألتها الأميرة : وأين رأيته ؟

فلم تجب الأميرة الصغيرة أمها .

قالت وهي لا تحول عني بصرها : ألديك الآن ما تعمله ؟

– أوه . لا .

– أتحب أن تساعدني في لف بعض الصوف . تعال هنا ، إليّ.

وأشارت لي برأسها وخرجت من حجرة الجلوس . فتبعتها .

كان أثاث الحجرة التي دخلناها أحسن قليلا . وقد رتب بنظام أكثر ذوقاً ، ولو أني في الحقيقة لم أكد حينئذ أستطيع أن ألحظ شيئاً . تحركت كأني في حلم ، وأحسست في كل كياني نوعاً من السعادة المفرطة ، القريبة من البله .

جلست الأميرة الصغيرة ، تناولت شلة من الصوف الأحمر ، ثم أجلستني في مقعد أمامها وحلت الشلة بعناية ، وجعلتها بين يديّ .فعلت كل هذا في صمت ، وفي نوع من التمهل الظريف ، وبتلك البسمة المشرقة الماكرة تلوح على شفتيها المنفرجتين قليلا .وبدأت تلف الصوف حول مشط معطوف ، وفجأة أدرت رأسي بنظرة سريعة لماحة لم أستطع معها أن أرخي بصري . كانت عيناها في أغلب الأحيان مسبلتين ، فإذا فتحتهما إلى أقصى اتساعهما تغير منظر وجهها تماما وبدا كأن النور يغمره .

سألتني بعد فترة قصيرة :ماذا كنت تظن بي أمس يا سيد فولدمار ؟ أكنت تظن بي سوءاً؟

أجبت في اضطراب : أنا . . . أيتها الأميرة . . . لم أظن شيئاً . . .كيف أستطيع ؟ . . .

فواصلت حديثها :اسمع ، أنت لا تعرفني بعد ، إني شخص غريب جداً . وأحب دائما أن أسمع الحقيقة . وأنت كما سمعت الآن– في السادسة عشرة من عمرك ، وأنا في الواحدة والعشرين ، فأنت ترى أني أكبرك كثيرا ، فيجب إذن أن تنبئني بالحقيقة . . .وأن تفعل ما آمرك به .

ثم أضافت : انظر إليّ : لم لا تنظر إليّ؟

كنت لا أزال شديد الخجل ،لكني على كل حال ، رفعت إليها ناظريّ . وابتسمتْ ، لا بسمتها السابقة ، بل بسمة من التشجيع . قالت وهي تخفض صوتها في دلال : انظر إليّ ، إني لا أكره ذلك . . . أنا أحب وجهك . عندي شعور بأننا سنكون صديقين . ثم أضافت في دهاء : لكن ، أتشعر بميل نحوي ؟

فشرعت أقول : أيتها الأميرة . . .

– أولا ، يجب أن تدعوني زينايدا ألكسندرفنا ، وثانياً ، لا يجمل بالأطفال (وأصلحت كلامها) بالفتيان– ألا يصرحوا بما يشعرون . ذلك أمر مقبول من الكبار ؛ إنك تميل إليّ أليس كذلك ؟

كنت شديد السرور إذ حدثتني بمثل هذه الحرية ، ومع هذا ، كنت أشعر بقليل من الألم . أردت أن أبين لها أنها ليست بإزاء صبي ،فقلت متكلفاً البساطة والجد ما وسعني ذلك : حقا إني أميل إليك ميلاً كثيراً يازينايدا ألكسندرفنا . وليس عندي رغبة في إخفاء ذلك .

هزت رأسها وهي غارقة في التأمل ، وسألتني فجأة : أعندك مربٍ؟

– لا ، لم يكن لي مرب منذ وقت طويل ، طويل .

وكذبت ، فلم يكن قد مضى شهر على افتراقي عن معلمي الفرنسي .

– أوه . فهمت إذن– لقد كبرت .

وربتت على أصابعي برقة– "خل يديك معتدلتين!" وشغلت نفسها بحل الشلة .

وانتهزت الفرصة حين كانت تغض بصرها ، وأخذت ألاحظها ، ألاحظها خلسة أول الأمر ، ثم في جرأة ، شيئاً فشيئاً . بهرني وجهها ، بدا أشد فتنةً مما كان في المساء السابق . كان كل ما فيه رقيقا ، ذكياً ، حلواً. كانت تجلس ، وظهرها إلى نافذة غطيت بستارة بيضاء ، تنفذ خلالها أشعة الشمس ،فتضفي نورا وادعاً على عقائس شعرها الذهبي الناعم ، وجيدها البريء ، وكتفيها المدورتين ، وصدرها الحنون الهادئ . حدقت فيها ، كم كانت الآن عزيزة عليّ ،قريبة مني! خيل إليّ أنّي أعرفها من زمن طويل ، وأني لم أكن أعرف شيئاً ، ولم أعش قط ، حتى لقيتها... كانت تلبس ثوبا داكنا على شيء من الرثاثة ، ومئزرًا . وددت لو قبلت كل ثنية من هذا الثوب وذلك المئزر . كان طرفا حذاءيها الصغيرين يبدوان من تحت قميصها .فليتني أركع في خشوع المتعبد أمام هذين الحذاءين . . . قلت لنفسي "وها أنذا ، أجلس أمامها ، لقد تعرفت بها ، فأي سعادة يا ربي!" . كنت لا أكاد أتمالك القفز من مقعدي مفتوناً ،وكان همي أن أهزّ ساقيّ قليلا ، كطفل أعطي شيئاً من الحلوى .

كنت سعيداً ، كسمكة في الماء ، وتمنيت لو بقيت في هذه الحجرة إلى الأبد ، ولم أغادر هذا المكان .

رفعت جفنيها في بطء ، فأشرقت عليّ من جديد عيناها الصافيتان بحنوّ ، وابتسمت مرة أخرى .

قالت في أناة : مالك تنظر إليّ! ورفعت إليّ إصبعاً متوعدة .

خجلت . . .ولمع في خاطري "إنها تفهم كل شيء ، إنها ترى كل شيء ، وكيف تعجز عن فهم كل شيء ورؤيته ؟" .

وفجأة سمع صوت في الحجرة المجاورة – صليل سيف .

هتفت الأميرة في حجرة الجلوس : زينا! لقد أحضر لك بيلزوروف قطة .

صاحت زينايدا : قطة! ونهضت من مقعدها مندفعة ، وقذفت بكرة الصوف على ركبتي ، وجرت .

نهضت كذلك ، ووضعت الشلة وكرة الصوف على كنار النافذة ، ثم دخلت إلى حجرة الجلوس ، ولبثت واقفا في تردد . كانت ترقد وسط الحجرة قطة رقطاء بارزة المخالب . وكانت زينايدا راكعة أمامها ، ترفع وجهها الصغير بحذر . ووقف بالقرب من الأميرة العجوز ، ضابط شاب من سلاح الفرسان يكاد يملأ ما بين النافذتين . كان له شعر معقوص أصفر، ووجه مورد ، وعينان بارزتان .

كانت زينايدا تقول : يا لها من شيء صغير ظريف! وليست عيناها رماديتين ، بل خضراوين ، وأي أذنين طويلتين! أشكرك يافكتور يجوريتش! إنك لطيف جدا .

عرفت في الضابط ، أحد الشبان الذين عرفتهم في المساء الماضي ؛ ابتسم وانحنى ، بصليل من مهمازه ، وجلجلة من سلسلة سيفه .

– تمنيت بالأمس قطة رقطاء لها أذنان طويلتان . . .فأحضرتها لك ، إن كلمتك قانون .

وانحنى مرة أخرى .

وماءت القطة مواء ضعيفا ، وأخذت تشم الأرض .

فصاحت زينايدا : إنها جائعة! فونيفاتي ، سونيا ، أحضري شيئا من اللبن .
دخلت خادم تلبس دثاراً عتيقاً أصفر ، وحول عنقها منديل حائل اللون ، وتحمل صحنا فيه لبن ، ووضعته أمام القطة . فذعرت القطة ، وطرفت عيناها وبدأت تلعق .
قالت زينايدا : يا للسانها الصغير الوردي اللون! ودنت برأسها حتى كادت تمس الأرض ، وأخذت تتأملها عن عرض من تحت أنفها .
ولما شبعت القطة ، بدأت تقرقر وتقبض مخالبها . ونهضت زينايدا ، والتفتت إلى الخادمة وهي تقول في غير اكتراث : خذيها بعيداً .
وقال الضابط : هات ثمن القطة- يدك الصغيرة . وابتسم كالأبله ، وهز جسمه القوي ، الذي حبكت عليه بزة عسكرية جديدة .
أجابت زينايدا : بل كلتيهما . . .ومدت إليه يديها . وحين كان يقبلهما ، كانت هي تنظر إليّ عبر كتفه .
جمدت في مكاني ، ولم أعرف هل أضحك ، أم أقول شيئاً ، أم ألزم الصمت . وفجأة ، لمحت خلال الباب المفتوح إلى الممر ، خادمنا فيدور . كان يشير إليّ ، وفي حركة آلية ذهبت إليه .
سألت : ماذا تريد ؟
قال هامساً : أرسلتني والدتك إليك . لقد غضبت لأنك لم تعد بالرد .
- كيف ، هل بقيتُ هنا زمناً طويلاً؟
- أكثر من ساعة .
- أكثر من ساعة! أعدتها دون وعي . ورجعت إلى حجرة الجلوس ، فبدأت أنحني وأحك الأرض بكعبي .
سألتني الأميرة الصغيرة وهي تلحظني من وراء الضابط : إلى أين أنت ذاهب ؟
- يجب أن أعود إلى البيت ، وأضفت مخاطباً السيدة العجوز : إذاً ، فلي أن أقول إنك ستحضرين إلينا حول الساعة الثانية .

– لك أن تقول ذلك يا سيدي الكريم .

وأخرجت الأميرة علبة نشوقها مسرعة ،ونشقت نشقة عالية جعلتني أقفز قفزا . وكررت قولها : لك أن تقول ذلك – وهي تطرف بعينيها الدامعتين ، وتعطس .

وانحنيت مرة أخرى ، وأدرت ظهري ، وخرجت من الحجرة أحس باضطراب في ظهري ، يحسه الفتى الصغيرّ حين يعلم أن أحدا ينظر إليه من خلفه .

– لا تنس أن تأتي لترانا ثانية يا سيد فولدمار . هتفت بذلك زينايدا ، وضحكت مرة أخرى .

" لِمَ تضحك دائماً ؟" فكرت في ذلك وأنا عائد إلى منزلي يصحبني فيدور الذي لم يحدثني بشيء ، بل سار ورائي بامتعاض . وعنفتني أمي ، وعجبت ما الذي كنت أفعله طول هذا الوقت في مسكن الأميرة . لم أجبها وتوجهت إلى حجرتي الخاصة . وفجأة ، شعرت بحزن شديد . . . حاولت جهدي ألا أبكي . . . لقد كنت أغار من الضابط .

٥

زارت الأميرة أمي كما وعدت ، ولم تنل رضاها . لم أكن حاضرا لقاءهما ، لكن أمي أخبرت والدي على المائدة أن الأميرة زاسيكن هذه ، بدت لها امرأة وضيعة (femme très vulgaire) ، وأنها تهالكت في التوسل إلى أمي في حمل الأمير سرجي على مساعدتها ، وأنه يظهر أن قضاياها ومشكلاتها لا تنتهي (de vilaines affaires d'argent) وأنها لا شك امرأة متعبة مشاكسة جدا . وعلى كل حال ، فقد أضافت أمي أنها دعتها إلى الغداء في اليوم التالي ، هي وابنتها (وعند سماع كلمة "ابنتها" وضعت أنفي في صحني) لأنها ،من بعدُ ،جارة وامرأة من النبلاء . فلما كان ذلك ، أخبر أبي والدتي أنه تذكر الآن من هذه السيدة ، وأنه قد عرف في صغره المرحوم الأمير زاسيكن ، الذي كان شخصا مهذبا ، لكنه عابث سخيف ؛ وأنه كان يدعى في المجتمع "بالباريسي" لأنه عاش زمنا طويلا في باريس ؛ وأنه كان عريض الثراء ، لكنه ضيع كل ما يملكه في القمار ، وأنه تزوج ابنة أحد الوكلاء ، لسبب مجهول ، وقد يكون للمال ، وإن كان يستطيع حقا -أضاف والدي بابتسامة باردة- أن يجد خيراً منها ؛ وأنه بعد زواجه ، أخذ يشتغل بالمضاربة ، وجلب على نفسه الخراب .

قالت أمي : كل أملي ، ألا تحاول أن تقترض نقوداً.

أجاب أبي في هدوء : ذلك محتمل جداً . أهي تتحدث بالفرنسية ؟

– تتحدثها برداءة .
– هم ، ليس ذلك مهما على أي حال . أظنك قلت إنك دعوت الابنة أيضا . قيل لي إنها فتاة جذابة مثقفة جداً.
– آه ، إذاً ، فهي ليست كأمها .
أجاب أبي : ولا كأبيها . إنه كان مثقفاً حقاً ، لكنه أحمق .
تنهدت أمي ، واستغرقت في التفكير ، ولم يقل أبي كلمة أخرى . وأحسست بضيق شديد أثناء هذا الحديث .
وبعد الغداء ، ذهبت إلى الحديقة ، لكن بغير بندقيتي . آليت على نفسي ألا أدنو من حديقة زاسيكن ، لكن قوة قاهرة جذبتني إلى هناك ، ولم يذهب ذلك عبثاً . فلم أكد أقترب من السياج حتى لمحت زينايدا . كانت هذه المرة وحدها ، وكانت تمسك في يديها كتاباً وتذرع الدرب آتية في بطء . ولم تلحظني .
وكدت أدعها تمضي ، لكني غيرت رأيي فجأة ، وسعلت .
أدارت ظهرها ، لكنها لم تقف ، ودفعت بإحدى يديها إلى الوراء ، الشريط العريض الأزرق في قبعتها المدورة المصنوعة من القش ، ونظرت إليَّ ، وابتسمت في بطء ، وعادت تلقي بصرها إلى الكتاب .
خلعت قبعتي ، وترددت لحظة ، ثم مضيت بقلب مثقل .
قلت لنفسي بالفرنسية (والله يعلم لماذا ؟) : من أكون عندها ؟ (Que suis-je pour elle?) وعلا من ورائي وقع أقدام مألوف . نظرت حولي فإذا بوالدي يتقدم نحوي ، في خطاه السريعة الخفيفة .
سألني : أتلك هي الأميرة الصغيرة ؟
– أجل .
– كيف ، أتعرفها ؟
– لقد رأيتها هذا الصباح في مسكن الأميرة .
وقف أبي ودار على عقبه بحدة ، ثم رجع . فلما صار بإزاء زينايدا ،

انحنى لها انحناءة تلطف ؛ فانحنت له هي الأخرى ، وعلى وجهها شيء من الدهشة ، وأسقطت كتابها . رأيت كيف أتبعته نظرها . كان أبي شديد العناية بهندامه ، وإن كان ملبسه بسيطا فريد الطراز ، لكن شخصيته لم تبهرني قط بمثل ذلك اللطف ، ولم أر قبعته الرمادية في وضع أليق مما بدت فيه الآن ، فوق خصلاته التي لم يكد يبدو أن العمر أصابها بنحول ما .

وجهت خطاي نحو زينايدا ، لكنها لم تكلف نفسها أن ترمقني بنظرة . التقطت كتابها مرة أخرى ، ومضت .

٦

قضيت المساء كله ، واليوم الذي تلاه ، في نوع من البلادة المكتئبة. أذكر أني حاولت أن أعمل ، فتناولت كتاب كيدانوف ، لكن سطور هذا المرجع الشهير ، وصفحاته الواضحة الطبع ، كانت تمر عبثا أمام عينيّ. قرأت هذه الكلمات عشر مرات : اشتهر يوليوس قيصر بالشجاعة الحربية ، ولم أفهم شيئاً . وألقيت بالكتاب جانباً . وقبل موعد الغداء ، دهنت شعري مرة أخرى ، ولبست ثانياً سترتي الطويلة ورباط رقبتي .

سألتني أمي : لِمَ هذا ؟ إنك لست طالباً بعد . والله أعلم هل تنجح في الامتحان أم لا ؟ ثم إنك لم تظفر بسترة جديدة من زمن طويل . فلا تعبث بها .

تمتمت واليأس يغالبني : سيزورنا ضيوف .

– ياللهراء! ويالهم من ضيوف!

كان لا بد لي من الخضوع . فأبذلت بسترتي الطويلة ، سترتي الأخرى ، لكني لم أنزع رباط رقبتي . وبدت الأميرة وابنتها قبل موعد الغداء بنصف ساعة . كانت السيدة العجوز تلبس مع ثوبها الأخضر الذي عرفته من قبل ، شملة صفراء ، وقبعة عتيقة الطراز تزينها شرائط صارخة اللون . بدأت لفورها تتحدث عن مشكلاتها المالية ، وهي تتنهد ، وتشكو فقرها ، وتسأل المعونة ، لكنها رفعت الكلفة . وكانت كعادتها تنشق في

جلبة ، وتتململ وتضطجع في مقعدها بحرية . وكأنها لم تفكر قط أنها أميرة . وكانت زينايدا على عكس ذلك جامدة ، تكاد تكون مترفعة في سلوكها ، أميرة لحماً ودماً . كان في وجهها جمود وعظمة ، فكأنه وجه غير الذي عرفته ، وكأني لم أعرف تلك البسمات والنظرات ، وإن كنت وجدتها بارعة الجمال في هذه الطلعة الجديدة أيضا . كانت تلبس ثوباً خفيفاً من الحرير الرقيق ، عليه زهور زرقاء شاحبة وكانت جدائل طويلة من شعرها ، مرسلة على خدها بالطريقة الانكليزية . وكان هذا الطراز يتناسب مع البرود الذي يعبر عنه وجهها . جلس أبي إلى جانبها أثناء الغداء ، فكان يؤنس جارته بذلك الأدب الكامل الهادئ الذي اختص به . كان يرمقها من حين لآخر بنظرة ، وكانت هي أيضا ترمقه ، لكن بنظرات غريبة تكاد تنم عن عداوة . دار بينهما الحديث بالفرنسية ، وأذكر أنني دهشت لسلامة نطق زينايدا . وظلت الأميرة على عهدها لا تحفل بالمراسم ونحن على المائدة . وأكلت قدراً كبيراً ، وأثنت على صنوف الطعام .

كان من الواضح أن أمي تضيق بها ، وترد عليها بنوع من الإهمال والملل . وكان أبي يعبس قليلا من حين لآخر . أما والدتي ، فلم تعجبها زينايدا أيضاً . وقالت في اليوم التالي : غنوج مزهوة! ولها وجه كوجه العاملات! (avec sa mine de grisette)

قال لها أبي : الواضح أنك لم تري قط عاملة .(geisette).

– نعم – حمداً لله .

– حمدا لله حقا . . . لكن كيف تعرفين عنهن شيئاً إذاً؟

أما أنا ، فلم تعرني زينايدا أي اهتمام ، ولما انتهى الغداء ، سرعان ما نهضت الأميرة للذهاب .

قالت لأبي وأمي في نغم حزين : سأعتمد على معونتكما الكريمة ، يا ماريا نيكولايفنا ، ويا بيوتر فاسيليفتش . ليست لي حيلة في ذلك .

كانت لنا أيام ، لكنها راحت . وهأنذا ، صاحبة سمو ، وإنه لشرف بائس إذا لم نجد ما نأكله! انحنى لها أبي باحترام ، وصحبها إلى باب البهو. كنت واقفا هناك بسترتي القصيرة أحملق في الأرض ، كمن ينتظر حكماً بالإعدام . إن معاملة زينايدا لي ، قد حطمتني تماما . لكن كم دهشت حين همست مسرعة وهي مارة بي ، وفي عينيها ذلك التعبير اللطيف الذي عهدته فيهما :تعال لزيارتنا في الساعة الثامنة ، أسامع أنت ، يجب أن تأتي . . .

مددت يديَّ ببساطة ، لكنها كانت قد مضت ، ملقية فوق رأسها بوشاح أبيض .

٧

في الســاعــة الثــامنة بالضــبط ، دخلت ممر المسكن الذي تعـيش فـيـه الأميـرة ، وقد لبست سترتي الطويلة ، ومشطت شعري وجدلته فوق رأسي . نظر إليَّ الخادم العجوز في غضب ، ونهض من مقعده كارهاً . كانت هناك أصوات مرحة في حجرة الجلوس . فتحت الباب ثم تراجعت في ذهول . كانت الأميرة الصغيرة وسط الحجرة ، واقفة على كرسي ، وتمد يدها بقبعة رجل . واجتمع حول الكرسي ستة رجال تقريباً . كانوا يحاولون أن يضعوا أيديهم في القبعة ، وهي ترفعها فوق رؤوسهم وتهزها بعنف . فلما رأتني ، صاحت : ابقَ . ابقَ . ضيف جديد ، يجب أن يأخذ هو الآخر تذكرة .

وقفزت في خفة فوق الكرسي ، وأمسكتني من كم سترتي ، وقالت : تعـال هنا ، لِمَ تلبث واقـفـاً ؟ أيهـا السـادة ، دعـوني أعـرفكم به : هذا هو السيد فولدمار ، ابن جارنا . وأتمت كلامها وهي تقدمني إليهم وتشير إلى ضيوفها واحداً بعد واحد : الكونت مالفسكي . الدكتور لوشين ، ميدانوف الشاعر ، اليوزباشي المتقاعد نرماتسكي ، وبيلفزوروف ضابط الفرسان الذي سبق أن رأيته . أرجو أن تكونوا خير أصدقاء .

اضطربتُ ، فما انحنيت لأحد ؛ وعرفت في الدكتور لوشين ، ذلك الرجل الأسمر الذي أخجلني في الحديقة بلا رحمة ؛ أما الآخرون فكنت أجهلهم .

استمرت زينايدا تقول : يا كونت! أكتب للسيد فولدمار تذكرة .

فاعترض الكونت قائلا في نبرة بولندية خفيفة : ليس هذا عدلاً .

كـان هذا الكونت أسـمـر وسـيـمـاً ،مـهندمـاً ، ذا عينين داكنتين مـعـبـرتين ، وأنف أبيض صغير دقيق ، فوق فم شديد الضيق . قال : هذا السيد لم يكن يلعب معنا الغرامات .

– ليس هذا عدلا . رددها معاً بيلفزوروف والسيد الذي وصفته بأنه يوزباشي متقاعد ، وهو رجل في الأربعين من عمره ؛ وجهه مجدر كريه ، وشعره جعد كزنجي ، مقوس الظهر أحنف الساقين ، يلبس بزة عسكرية مفكوكة الأزرار ، ليس لها ألسنة على الكتفين .

أعـادت الأمـيـرة الصـغـيـرة : أقـول لك ، اكـتب له تذكـرة ، مـا هذا العـصيـان ؟ إن السـيـد فولدمـار يلتـقي بنا للمـرة الأولى ، فـلا تسـري عليـه قاعدة إلى الآن . لا جدوى من التذمر ، اكتبها ، فأنا أريد ذلك .

وهز الكونت كتفيه ؛ لكنه انحنى في خضوع ، وتناول القلم بأصابعه البيضاء المزينة بالخواتم ، وقص قصاصة ورق ، وكتب فيها .

بدأ لوشين يقـول متـهكمـاً :لنشـرح على الأقل للسـيد فـولدمـار ما نحن بصـدده ، وإلا خسـر ،هل أنت فاهم أيهـا الشـاب الصـغـيـر أننـا نلعب الغرامات ؟ على الأميرة أن تدفع غرامة ، ومن يـسحب الورقة الرابحة ، فله أن يقبل يدها . فهل تفهم ما قلته لك ؟

فـمـا زدت على أن حـملقت فـيـه ، ولبـثت واقـفـا في حـيـرة ، بينمـا قفـزت الأميرة الصغيرة على الكرسي مرة أخرى ، وأخـذت تحرك القبـعة من جديد . اشرأب الجميع إليها ، فحذوت حذوهم .

– مـيـدانوف ، نـادت بذلك الأمـيـرة شـابـاً طويلاً نحـيف الـوجـه ، له عـينان صـغـيـرتان مظـلمـتـان ، وشـعـر فـاحـم شـديـد الطـول – يجـب عليك ، وأنت شـاعـر ، أن تكون كـريماً وتعطي ورقـتك للسـيـد فـولدمـار ، لتكون له فرصتان بدلاً من فرصة واحدة .

لكن مـيـدانوف هز رأسـه عـلامـة الرفض ، وطـرح شـعـره إلى الوراء . ووضعت يدي بعد الآخرين جميعا ، وفتحت الورقة التي كانت من نصيبي ... يا للسماء! أي حال كنت فيها حين رأيت على الورقة هذه الكلمة "قبلة!" .

فقالت الأميرة مسرعة : مرحى! لقد ربحها ، ما أشد فرحي!
وهبطت من الكرسي ورمقتني بنظرة حلوة وضاءة ، جعلت قلبي يثب في صدري .
سألتني : أسعيد أنت ؟
قلت متلعثماً : لا؟ . . .
وهمهم بيلفزوروف فجأة في أذني . بعني ورقتك . سأعطيك مائة روبل .
أجبت الضابط بنظرة غضب ، جعلت زينايدا تصفق بيديها ، بينما صاح لوشين :
- إنه لفتىً!
ثم مضى يقول : لكن بما أني المشرف على نظام اللعبة ، لذلك أرى من واجبي أن أتأكد من اتباع جميع القواعد . اركع ياسيد فولدمار على إحدى ركبتيك . هذا نظامنا .
ووقفت زينايدا أمامي ، ومالت برأسها قليلا ، كأنما تريد أن تحسن النظر إليَّ ، ومدت إليَّ يدها مزهوة . ومرت غشاوة أمام ناظريَّ ؛ وأردت أن أركع على إحدى ركبتيَّ ، فركعت عليهما معا ، وضغطت بشفتي أصابع زينايدا في اضطراب ، حتى خدشت نفسي قليلا بطرف ظفرها .
صاح لوشين : أحسنت!
وساعدني على النهوض .
واستمرت لعبة الغرامات . وأجلستني زينايدا بجانبها ، واستحدثت كل أنواع الغرامات الشاذة! كان من بين ما استحدثته ، أن تعرض "تمثالا" ، فاختارت نرماتسكي القبيح قاعدة له ، وأمرته أن يركع على هيئة القوس ، ويحني رأسه على صدره . ولم ينقطع الضحك لحظة . أما أنا ، ذلك الصبي الذي تربى دائما في عزلة ، بدار يجللها الوقار ، فقد أسكرتني كل هذه الضجة والصخب ، وذلك المرح المتحرر الذي يوشك أن يكون خليعاً ، وهذه الصلات بأشخاص لم أكن أعرفهم . دار رأسي ، كأنما يدور من الخمر . وبدأت أضحك وأتحدث بصوت يعلو على أصوات الآخرين ، وقد بلغ من ارتفاعه أن الأميرة العجوز أتت فعلا لتنظر إليَّ ،

وقد كانت جالسة في الحجرة المجاورة مع كاتب ما ، من تفرسكي ، دعته للمشاورة في بعض الأعمال . لكني شعرت بسعادة عظيمة لأني لا آبه بشيء ، ولا أحفل بأحد يهزأ بي أو ينظر إليَّ متشككا في أمري . واستمرت زينايدا تظهر لي إيثارها ، وأبقتني بجانبها . وفي إحدى الغرامات ، كان عليَّ أن أجلس بجانبها ، ونخفي وجهينا معا بمنديل حريري واحد : كان عليَّ أن أبوح لها "بسري" . وإني لأذكر رأسينا ، وهما في ظلمة دافئة عاطرة شبه شفافة ، وأذكر سنا عينيها الناعمَ الخفيَّ في الظلام ، وأنفاسها الملتهبة بين شفتيها المنفرجتين ، ووميض أسنانها وأطراف شعرها تدغدغني وتلهب إحساسي . لزمت الصمت وابتسمت هي في دهاء واستخفاء ، وأخيراً همست في أذني : حسن ماهو ؟ لكني لم أفعل سوى أن خجلت ، وضحكت ، وأدرت وجهي عنها ألقف أنفاسي . ومللنا الغرامات – فبدأنا نلعب لعبة بخيطٍ . يا إلهي! كم طربت حين غفلتُ فتلقيت منها ضربة حادة قوية على أصابعي ، وكيف حاولت بعد هذا الادعاء بأني كنت ذاهلا ، فأغاظتني ولم تمس اليدين اللتين مددتهما إليها! أي شيء لم نفعله ذلك المساء! عزفنا على البيان ، وغنينا ورقصنا ومثلنا مخيماً غجرياً ، وأُلبسَ نرماتسكي كدبٍّ ، وجُعل يشرب ماء ملحاً . وعرض علينا الكونت مالفسكي أنواعاً شتى من حيل الورق ، وانتهى بأن خلط الأوراق بعضها في بعض ، ووزع لنفسه كل الأوراق الرابحة في اللعبة ، فكان للوشين "الشرف بتهنئته على ذلك ." وأنشد ميدانوف قطعا من قصيدته "السفاح" (وكانت الرومانتيكية إذ ذاك في ذروتها) وكان ينوي إخراجها في غلاف أسود ، ويجعل عنوانها بحروف حمراء كالدم . وقد سرقوا قبعة الكاتب من على ركبته ؛ وجعلوه يرقص رقصة قوزاقية ، فدية لها . وألبسوا فونيفاتي العجوز قبعة امرأة ، ولبست الأميرة الصغيرة قبعة رجل . . . ولا أستطيع أن أحصي كل ما فعلناه . وكان بيلفزوروف وحده يتباعد ويتباعد ، عابساً غاضباً . . كان أحيانا يبدو أحمر العينين ، ويصعد الدم إلى وجهه ، ويخيل إلينا في كل لحظة أنه سينقضُّ علينا ويمزقنا إرباً ، لكن الأميرة الصغيرة ربما رمته بنظرة وأشارت إليه بأصبعها ، فيتراجع إلى ركنه مرة أخرى .

نُهِكَت قـوانا آخـر الأمـر .بل إن الأمـيـرة العـجـوز أحـست في النهـاية بالتعب ، وتاقت إلى الهدوء والأمن ، وإن قالت إنها مِستعدة لكل شيء ، وإن أي جلبة لن تزعجها ، وفي الساعة الثانية عشرة مساء ، قدم العشاء ، وكان قطعة جبن جافة قديمة ، وشيئاً من اللحم المفروم البارد ، خيل إليَّ أنه ألذ وأشهى من أي فطيرة ذقتها في حياتي ؛ ولم تكن هناك سوى زجاجة واحدة من النبيذ ، زجاجة غريبة قاتمة اللون ، ذات رقبة واسعة ، وكان نبيذها قرمزياً ، على أن أحداً لم يشربه .

غادرت المسكن وقد نهكتني السعادة وأعيتني ، وضغطت زينايدا يدي في حرارة ، وأنا راحل ، وابتسمت مرة أخرى بسمة محيرة .

كان هواء الليل ثقيلاً رطباً على وجهي المكفهر ، وبدت عاصفة كأنها تتجمع ، وتراكمت غيوم سوداء ، وزحفت عبر السماء ، تتغير حواشيها الدخنة تغيراً ظاهراً . واضطربت هبة من الريح في الأشجار القاتمة ، وكان هناك ، في مكان ما ، بعيداً عند الأفق ، رعد مكتوم يقصف غاضبا كأنما يقصف لنفسه .

اتخذت طريقي إلى حجرتي بالسلم الخلفي . كان خادمي العجوز نائماً على الأرض ، فكان عليَّ أن أتخطاه . استيقظ ورآني ، وأخبرني أن أمي غضبت مني مرة أخرى ، غضباً شديداً ، وأرادت أن ترسل إلي ثانياً ، لكن أبي منعها . (لم أكن أذهب إلى فراشي دون أن أحيي أمي تحية المساء ، وأسألها البركة. ولم أستطع ذلك الآن!) . قلت لخادمي إني سأخلع ملابسي وأذهب إلى فراشي وحدي ، وأطفأت الشمعة لكني لم أخلع ملابسي ، ولم أذهب إلى فراشي . جلست على مقعد ، وجلست طويلا ، كأني معقود اللسان . كان ما أحس به جديداً كل الجدة ، حلواً كل الحلاوة . . .جلست ساكنا ، لا أكاد أتلفت ، ولا أتحرك ، وأتنفس أنفاساً بطيئة ، وأكتفي بأن أضحك صامتاً من وقتٍ لآخر ، حين أتذكر شيئاً ، أو أنقلب جامداً حين يجول بفكري أني أحب ، وأن هذه كانت هي ، وأن هذا هو الحب . كان وجه زينايدا يطوف أمامي بطيئاً في الظلام – يطوف أمامي ولا يختفي . وكانت تلك البسمة الملغزة لا تزال تلوح على شفتيها ، وعيناها تلحظاني قليلا من جانب ، تلحظني بنظرة متسائلة حالمة

حنون . . .كظرتهـا إذ رحلت عنهـا .نـهـضت أخـيـراً ،وسـرتُ على أطراف أصابعي إلى فراشي ، وبغير أن أخلع ملابسي ، وضعت رأسي على الوسادة في عناية ، كأني أخاف حركة مفاجئة تقلق ما ملأ نفسي . . .رقدت ،لكني لم أغمض عينيّ . وسرعان ما لاحظت أن نوراً ما ، يرسل أشعة ضعيفة باستمرار إلى الحجرة . . .فجلست ونظرت إلى النافذة . كان إطار النافذة يتميز في وضوح ، من الزجاج المضيء في غبش واستخفاء .خطر لي أنها عاصفة، وكانت في الحق عاصفة ،لكنها تثور بعيداً بعيداً حتى إن الرعد لم يكن مسموعاً .وما هي إلا ومضات من البرق ،غامضة طويلة كأنها متشعبة، استمرت تومض في السماء ، وإن لم تكن تومض بقدر ما كانت ترتجف وتخفق كجناح طائر يموت . قمت وذهبت إلى النافذة ، ولبثت هناك واقفاً حتى الصباح . . . لم يكف البرق لحظة ، كان ذلك الذي يسميه الفلاحون عندنا "بليل العصفور" . حدقت في السهل الرملي الأخرس ، وفي ظلمة حدائق نسكتشني ، والواجهات المصفرة للأبنية البعيدة ،وكأنها ترتجف أيضا مع كل ومضة ضعيفة . . حدقت ، ولم أستطع أن أدير بصري – كانت هذه الومضات الصامتة ، وتلك الأنوار ، كأنما تتجاوب والنار الخفية الصامتة التي تضيء في نفسي . وبدأ الصباح ينبلج فجره ،وتلطخت السماء بحمرة قرمزية . فلما علت الشمس ،أخذ البرق يبهت شيئاً فشيئاً ،وتوقف ؛قَلّتْ الومضات المرتجفة وأخيراً تلاشت ، غرقتْ في النور الرزين المبين ، نور اليوم الجديد .

وتلاشت أيضا ومضاتي ، وأحسستُ بتعب شديد ، وسلام . . لكن طيف زينايدا لم يزل يغزو روحي ، وإن بدا هذا الطيف أيضا أكثر هدوءاً! لقد تميز من بين الصور الأخرى القبيحة المحيطة به ، مثل بجعة تنهض من بين أعشاب مستنقع . . . وحين رحت في النوم ألقيت بنفسي أمامه، مودعاً ، ومؤكداً عبادتي . . .

أواه ، أيتها العواطف الحلوة ، والانسجام اللطيف ، والطيبة والسلام في ذلك القلب الرفيق ، أيتها السعادة المذوبة في أول مباهج الحب –أين أنتِ ؟ أين أنتِ ؟...

٨

في الصباح التالي ، حين نزلت لأتناول الشاي ، زجرتني أمي- وإن كان زجرها أقل قسوة مما كنت أتوقعه- وأمرتني أن أقص عليها كيف قضيت المساء السابق . أجبتها بكلمات قلائل ، بعد أن حذفت كثيراً من التفاصيل ، وحاولت أن أُلبسَ كلَّ شيء ، جواً أشد ما يكون براءة .

عَلقت أمي بقولها :

- إنهم على أي حال ليسوا كما ينبغي (comme il faut) فلا داعي لأن تحوم حولهم بدلا من أن تستعد للامتحان وتؤدي عملك .

ولما كنت متأكداً من أن قلق أمي على دراستي ينتهي بهذه الكلمات القلائل ، لم أحس بضرورة للدفاع عن نفسي . لكن أبي بعد أن انتهى شاي الصباح أخذني من ذراعي ومضى بي إلى الحديقة ، وأجبرني على أن أقص عليه كل ما رأيت عند آل زاسيكن .

كان لأبي عليَّ تأثير غريب ، كما كانت غريبة تلك الصلات القائمة بيننا . كان لا يكاد يهتم بأمر تعليمي ، لكنه لم يجرح قط إحساسي . كان يقدر حريتي ، ويعاملني متأدباً ، إن صح مني هذا التعبير . . . لكنه لم يسمح لي قط أن أكون حقاً وثيق الصلة به . كنت أحبه ، وكنت أعجب به ، كان مثلي الأعلى للرجل - وياالله! كم يكون ولائي له عظيما ، لو لم أشعر دائماً أنه يجعل بيني وبينه فاصلاً! لكنه

كـان حين يشـاء ، يكتسـب ثقـة لا حـد لهـا ، بكلمـة أو إشـارة واحـدة . . . وتفتحت نفسي ، فكنت أثرثر معه ، كأنه صديق حكيم أو معلم لطيف . ثم إذا به يتخلى عني فجأة ، ويبعدني عنه مرة أخرى ، بلطف ومودة ، لكنه على كل حال يبعدني .

كان أحيانا يبتهج ، فيلعب معي ويمرح - كالصبي (وكان مولعا بكل أنواع التدريب البدني القوي) . وحدث مرة-ولم يحدث بعدها قط مرة أخرى- أن لاطفني برقة شديدة حتى كدت أذرف الدمع . . . لكن ابتهاجه تلاشى تماما ، كما تلاشت رقته ، وإذا بالذي مر بيننا ، لا يمدني بشيء أبني عليه مستقبل أيامي . . .كان كأنه حلم طاف بي . ربما كنت أحيانا أتفرس في وجهه الذكي الوسيم الوضاء . . .فيخفق قلبي ، ويحنُّ إليه كل كياني . . .ويبدو كأنه يحس بما يحدث لي ، فيربت على خدي بحركة عابرة ويمضي ، أو يشغل نفسه بعمل ما ، أو يجمد فجأة كأنه يعرف كيف يجمد ، وأنطوي أنا على نفسي لتوي ، وأنقلب بارداً مثله .

لم تكن النوبات النادرة من صداقته لي ، تنبعث قط من توسلاتي الصامتة الدالة ، بل كانت دائما تحدث على غير انتظار . ولما أجلت الفكر بعد ذلك في شخصية أبي ، انتهيت إلى أنه لا يفكر فيَّ أو في الحياة العائلية ، كان قلبه موزعاً بين أمور أخرى ، وقد وجد الرضا الكامل في مكان آخر . قال لي يوماً :

- اغتنم لنفسك ما تستطيع ، ولا تَدعْ أحدا يحكمك . إن طعم الحياة كله في . . . أن تكون سيد نفسك .

كنت مرة أخرى ، أبسط آرائي في الحرية - كما يفعل الديمقراطي الصغير-(وكان يومئذ لطيفا كما كنت أقول عنه ، وكنت في مثل هذه الأوقات أستطيع أن أحدثه بما أشاء) .

- قال : الحرية ، وهل تعلم ما الذي يستطيع أن يمنح الحرية للمرء ؟

- ماذا ؟

– الإرادة.. إرادته الخاصة ، بل تمنحه القوة ، التي هي خير من الحرية . تعلمْ كيف تكون قوي الإرادة ، تكنْ حراً ،وتَقُدْ غيرك من الناس .

كان أبي– قبل كل شيء ، وبعد كل شيء– يريد أن يعيش ، وقد عاش . . . وربما هجس في نفسه أنه لن يتمتع طويلا "بطعم" الحياة ، فقد مات في الثانية والأربعين .

وَصفتُ لأبي بدقة كيف قضيت المساء عند آل زاسيكن . كان يستمع إليّ بين الاهتمام وعدم الاكتراث ، وهو جالس على مقعد في الحديقة ، يرسم بعصاه على الرمل . كان بين حين وآخر ، يضحك ويلتمع وجهه ، ويحدجني بنظراته ، ويستحثني على المضي في الحديث ، بأن يسألني أسئلة قصيرة ، ويؤمن على أقوالي . كنت بادئ الأمر لا أجرؤ على نطق اسم زينايدا ، لكني لم أستطع المضي في كبح نفسي ،فأخذت أتغنى بمديحها . ولبث أبي يضحك ، ثم بدا عليه التفكير– وتمدد ، ثم نهض .

وأذكر أنه أمر بأن يسرج حصانه وهو يخرج من المنزل . كان فارساً رائعاً ،عرف قبل ريري (rarey) بزمن طويل ، سرّ التغلب على أكثر الخيول رعونة .

سألته : هل آتي معك ياأبي ؟

فأجاب ، وقد اتخذ وجهه تلك الهيئة المعهودة من الإهمال اللطيف :

– كلا اذهب وحدك إذا أردت ، وقل للسائس إني لن أذهب .

وأدار لي ظهره ومضى عني مسرعاً .تبعته بنظري ، حتى اختفى بين البوابات . رأيت قبعته تتحرك في محاذاة السياج ؛ لقد دخل إلى مسكن آل زاسيكن . لبث هناك ما لا يزيد عن ساعة ،لكنه بعد ذلك رحل لتوه إلى المدينة ، ولم يَعدْ إلى المنزل حتى المساء .

ذهبت بدوري بعد الغداء إلى مسكن آل زاسيكن . لم أجد في

حجرة الجلوس غير الأميرة العجوز . فلما رأتني ، حكتْ رأسها من تحت قبعتها بإبرة طويلة لنسج الصوف ، وسألتني فجأة هل أستطيع أن أنسخ لها عريضة .

أجبت وأنا أجلس على طرف مقعد : بسرور .

قالت الأميرة وهي تُناولني صفحة قذرة من الورق :

- لكن لا تنسَ أن تكتبها بحروف أكبر . هل تستطيع أن تفعل ذلك اليوم ، أيها السيد الكريم ؟

- طبعا ، سأنسخها اليوم .

وفي تلك اللحظة ، فُتح باب الحجرة المجاورة ، فرأيت خلال الفرجة ، وجه زينايدا ، شاحبا مستغرقا في التفكير ، وشعرها مرسلا إلى الخلف بإهمال ؛ حدقت فيَّ بعينين كبيرتين باردتين ، وأغلقت الباب برفق .

- ونادت العجوز :

- زينا ، زينا!

فلم تجب زينايدا . وأخذت عريضة العجوز معي إلى المنزل ، وقضيت فيها المساء كله .

٩

من هذا اليوم ، بدأ "غرامي" . أذكر أني شعرت في ذلك الوقت ، بشيء لا بد أن يشعر به المرء حين يدخل الخدمة : لم أعد الآن صبيا ، فقد كنت أحب . قلت إن غرامي بدأ من هذا اليوم ، وكان من الممكن أن أضيف ، أن آلامي أيضا بدأت في اليوم نفسه . أصابني النحول وأنا بعيد عن زينايدا ؛ وتغير كل شيء في نظري ، وساءت جميع أموري ، وقضيت أياما بطولها أفكر فيها تفكيراً شديداً . . .كان النحول يصيبني وأنا بعيد عنها ، ولم أكن خيراً من ذلك حين أكون معها ؛ لقد كنت غيوراً ، وكنت أشعر بتفاهتي ؛ كنت عبوساً متبلداً ، أو ذليلاً متخاذلاً ، ورغم ذلك ، تدنيني إليها قوة قاهرة ، فلم أكن أملك نفسي من هزة الفرح ، كلما تخطيت عتبة حجرتها . وحدست زينايدا لتوها ، أني أحبها ، والحق أني لم أفكر قط في إخفاء حبي . كانت تسلي نفسها بغرامي ، وتستغفلني ، وتدللني ، وتعذبني . إن المرء ليحس حلاوة في أن يكون المصدر الوحيد ، والعلة القاهرة التي لا تأبه ، لما يصيب الآخرين من فرح شديد ، وألم عميق . وهكذا ، كنت كالشمع بين يدي زينايدا ، وإن لم أكن في الحق أحبها وحدي . فقد جُنَّ بها كل الذين يزورون منزلها ، وجعلتهم جميعا طوع بنانها . لذَّ لها أن تنعش الآمال ، ثم تثير فيهم المخاوف ، وتلعب بهم جميعاً (وكانت تعبر عن ذلك ، فتقول إنها

تضـــرب رؤوســـهم بعـــضـــهـــا في بعض) بينمـــا كـــانوا هم لا يحلمـــون بمعارضتها ، ويخضعون لها راضين . شاع في كل كيانها ، المفعم بالحياة والجمال ، خليط متميز فاتن من الدهاء وعدم الاكتراث ، ومن التصنع والبساطة ، ومن الرزانة والمرح . كان كل ما تقوله وتعمله ، وكل حركة تأتيها ، يمتزج بها فتنة رائعة رقيقة ، فيها قوة ذاتية واضحة الأثر ، كان وجهها دائم التغير ، دائم الانفعال . كان غالبا ما يعبر في وقت واحد عن التـــهكم ، والاســـتـــغـــراق في الأحـــلام ، والتـــهـــاب العـــاطفـــة . كـــانت الانفعالات المختلفة الرقيقة ، السريعة التغير كظلال السحائب في يوم ريح مشمس ، كانت هذه الانفعالات ، لاتفتأ يطارد بعضها بعضاً ، على شفتيها وعينيها .

ولم تكن في غِنى عن أحد ممن يعبدونها . كان بيلفزوروف – وأحيانا كانت تسميه "وحشي المفترس" وأحيانا أخرى "رجلي"– ربما يسعده أن يلقي بنفسه في النار من أجلها . وكان لضعف ثقته بمواهبه العقلية ، وميزاته الأخرى ، يعرض عليها الزواج دائما ، وهو يلمح بأن الآخرين يحومون حولها دون غرض جدي .

وكان ميدانوف يخاطب النواحي الشعرية في طبيعتها . كان بارد الطبع ، كأغلب الكتاب ، فأرغم نفسه على إقناعها ، وإقناع نفسه أيضا ، بأنه كان يعبدها ؛ وقد أشاد بمدحها في قصائد لا عدَّ لها ، وكان ينشدها في حماس خاص ، متكلف صادق في آن . وكانت هي تعطف عليه ، وفي الوقت نفسه تهزأ به قليلا . لم تكن تثق به ثقة كبيرة ، كانت تنصت إلى ما يفيض به من أشعار ، وربما جعلته بعد ذلك ينشد أشعار بوشكين– حتى يصفو الجو كما كانت تقول . أما لوشين ، الطبيب الساخر اللاذع العبارة ، فكان يعرفها خيراً مما يعرفها أي واحد منهم ، ويحبها أكثر مما يحبونها جميعاً ، وإن قسا عليها في حضرتها وغيبتها . ولم يكن في وسعها إلا أن تحترمه ، لكنها جرعته الآلام لذلك .

وكانت أحيانا تسر سروراً خبيثاً ، إذ تشعره أنه تحت رجمتها . قالت له يوما وأنا حاضر :

– إني لعوب ، لا قلب لي ؛ إني ممثلة بطبعي . حسن ، حسن! أعطني يدك إذاً ، وسأغرز فيها هذا الدبوس ، وستخجل ، لأن هذا الشاب يرى ذلك ، وسيؤلمك الدبوس ، ولكنك ستضحك من هذا كله ، أيها الرجل الأمين!

واحمرّ وجه لوشين ، والتفت ، وعض على شفتيه ، لكنه أسلمها يده . شكتها ، وبدأ هو يضحك حقاً . . . وضحكت وهي تزيد الدبوس غرزاً ،تزيده في لطف . وتنظر في عينيه اللتين جاهد عبثا أن يحولهما عنها . . .

وكان أبعد الأشياء عن فهمي ، تلك الصلات القائمة بين زينايدا والكونت مالفسكي . كان وسيماً ذكياً كيساً ، لكني وأنا الصبي في السادسة عشرة ، كنت أتبين فيه شيئاً مريباً خادعاً ، وكنت أعجب كيف لا تلحظه زينايدا ، لكن لعلها كانت حقاً تلحظ هذا الطبع الخداع ولا تنفر منه . كان تعليمها غير المنتظم ، وغرابة عاداتها وصلاتها بالناس ، ووجود أمها الدائم ، والفقر والفوضى الضاربان في منزلها ، كان كل شيء من هذه الحرية التي تتمتع بها الفتاة الصغيرة ، إلى شعورها بالسيادة على الناس الملتفين حولها ، كان هذا كله ، قد ربى فيها نوعاً من عدم الاكتراث الذي يشوبه الاحتقار ، وباعد بينها وبين التأنق والتدقيق .

قد يعلن فونيفاتي أنه لا يوجد شيء من السكر ، أو تصل إلى سمعها فضيحة مثيرة ، أو يتشاحن ضيوفها فيما بينهم ، قد يحدث أي شيء كهذا ، في أيّ لحظة ، فلا تفعل هي إلا أن تنفض خصلات شعرها وتقول :

"فيمَ يعنيني هذا ؟" ولا تلقي بالها إليه إلا قليلا .

لكن دمي كان يغلي أحيانا من الغيظ ، حين يدنو منها مالفسكي ، بحركة ماكرة ثعلبية ، وينحني بلطف على مقعدها ، ثم يهمس في أذنها ببسمة صغيرة راضية متملقة ، بينما تعقد هي ذراعيها حول صدرها ، وتنظر إليه نظرة ثابتة ، وتبتسم أيضا ، وتهز رأسها .

سألتها يوما :

– ماالذي يحدوك على استقبال الكونت مالفسكي ؟

أجابت :

– إن له شاربين ظريفين حقا . لكن هذا بعيد عن إدراكك .

قالت لي مرة أخرى :

– لا تظن أني أهتم به ، كلا! إني لا أهتم بمن أحتقرهم ، لا بد لي من أحد يستطيع أن يسودني . . .ولكن ، يالرحمة السماء! أرجو ألا أعرف أبداً شخصاً كهذا! لا أريد أن أكون بين مخالب أحد ، لا أريد ذلك أبداً.

– إذاً ، فلن تعرفي الحب ؟

قالت :

– وأنت ؟ ألستُ أحبك ؟

ولطمتني بطرف قفازها على أنفي .

أجل إن زينايدا كانت تلهو بي . لبثت ثلاثة أسابيع أراها كل يوم ، أي شيء لم تفعله معي! كانت نادراً ما تأتي لزيارتنا ، ولم آسف على ذلك . فقد كانت تصبح في بيتنا سيدة صغيرة ، بل أميرة صغيرة ، وكنت أرهبها بعض الرهبة . كنت أخاف أن أكشف سري أمام والدتي . لقد كرهتْ زينايدا كرهاً شديداً ،وجعلت تنظر إلينا شزراً .أما أبي فلم أكن أخافه مثلما كنت أخافها ،فقد بدا لي أنه لا يلقي باله إليَّ .كان يتحدث إليها قليلا ،لكن حديثه كان دائما يتميز بالذكاء ويرمي إلى هدف بعيد .

انصرفت عن العمل والقراءة ، بل عن التجوال ، وركوب حصاني . كنت كخنفساء ربطت من رجلها ، أدور دائما وأدور حول المسكن الصغير الحبيب إليَّ . كنت أود لو لبثت هناك على الدوام . . . بدا لي هذا . . . لكنه كان مستحيلا . كانت أمي تنهرني ، بل إن زينايدا نفسها كانت أحياناً تطردني . ومن ثمَّ كنت أحبس نفسي في حَجرتي ، أو أهبط إلى أقصى ركن من الحديقة ، وأصعد أطلال منزل حجري مرتفع ، صار الآن أنقاضاً ، وأجلس ساعات ، معلقاً ساقيَّ على الجدار الذي يطل على الشارع ، وأحدق وأحدق ولا أرى شيئاً . كانت الفراشات البيض ترف حولي في بلادة ، فوق حشائش القريص المكسوة بالتراب ، وكان عصفور دوري سليط ، يحط غير بعيد عني ، فوق البناء الأحمر المتساقط المبني من الآجر ، ويغردُ في نزق ، وهو لا يفتأ يلوي ريش ذيله ، ويلفه ويسويه ، والغربان التي لم تأمن جانبي بعد ، تنعب من حين لآخر ، وهي واقفة عالياً عالياً ، فوق قمة جرداء لشجرة من أشجار البتولا ، وكانت الشمس والريح تمرحان ناعمتين على أغصانها اللُّدن ، وصلصلة الأجراس في دير الدون ، تسري إليَّ بين الحين والآخر ، هادئة موحشة . كل هذا ، وأنا أجلس ، وأحدق ، وأنصت ، وصدري مفعم بإحساس مبهم ، يتزاحم فيه الحزن والبهجة والتوقع والرغبة في الحياة ، والخوف منها . لكني حينذاك ، لم أكن أفهم شيئاً من هذا الإحساس ، ولا أستطيع أن أسمي شيئاً مما طاف بنفسي ، أو كنت أسميه جميعاً باسم واحد ، اسم زينايدا .

ظلت زينايدا تلعب معي لعبة القط والفأر . كانت تغازلني فإذا كلي وجد وحبور ، وإذا بها تنبذني بعد ذلك فجأة ، فلا أجرؤ على الدنو منها ، ولا أجرؤ على النظر إليها .

أذكر أنها لبثت تهملني أياما بطولها ؛ سحقت سحقاً ، وتسللت في وجل إلى مسكنها ، وحاولت أن أبقى بجانب الأميرة العجوز ، غير

عابئ بالظروف التي كانت تلعنها وتتأفف منها في كل لحظة ، فقد ساءت أمورها المالية وذهبت فعلا إلى دار الشرطة مرتين .

كنت يوما أسير في الحديقة بجانب السياج المعهود ،فوقع نظري على زينايدا ؛ كانت تجلس على الحشيش معتمدة على ذراعيها ، لا تتحرك فيها عضلة . وكدت أنصرف حذراً ، لكنها رفعت رأسها فجأة ، وأشارت إليَّ إشارة آمرة . خانني قلبي ، ولم أفهمها أول الأمر . وأعادت إشارتها ، فقفزت فوق السياج لتوي ، وجريت إليها فرحاً ، لكنها بنظرة من عينيها ، حملتني على الوقوف ، ووجهتني إلى الدرب ، على قيد خطوتين منها . ركعت على ركبتي عند نهاية الدرب ، وأنا مضطرب لا أعلم ماذا أفعل . كانت شديدة الشحوب وكان يبدو في كل ملمح من ملامح وجهها عذاب مر وضجر مؤلم ، فنفذت إلى قلبي طعنة حادة ، وغمغمت دون وعي :

– ما الأمر ؟

فمدت زينايدا رأسها ، وأمسكت عوداً من العشب ، وقضمته ، ثم قذفته بعيداً عنها . وسألتني أخيراً :

– أتحبني حباً شديداً ؟ حقاً؟

لم أنطق بجواب– وما حاجتي في الحق إلى جواب ؟

أعادت وهي تنظر إليَّ نظرتها :

– أجل! هو ذاك .

ومضت تقول :

– العينان نفسهما . . .ثم استغرقت في التفكير ، وأخفت وجهها بين يديها ، وهمست :

– كل شيء صار كريها إليَّ – ليتني رحلت إلى أقصى العالم ، قبل أن يحدث هذا– لا أستطيع احتمالاً ، لا أستطيع الخلاص . . . وأيّ شيء هنا أمامي! . . . آه ، إني شقية . . . يا إلهي ، ما أشقاني!

سألت متهيباً :

– ولم ؟

لم تجب زينايدا ، بل هزت كتفيها . وبقيت راكعاً ،أحدق فيها بحزن شديد . لقد نفذت إلى قلبي كل كلمة فاهت بها . وفي تلك اللحظة ، تمنيت لو أبذل حياتي عن طيب خاطر . . . ولا تحزن . حدقت فيها – لم أستطع أن أعرف لِمَ كانت شقية ، ومع هذا ، فقد تمثلت لها صورة حية ، وكيف أنها كانت في نوبة من العذاب الذي لا يطاق ، فخرجتْ فجأة إلى الحديقة ، وارتمت على الأرض ، كأنما حصدها منجل . كان كل ما حولها وضاء ناضراً ،وكانت الريح تهمس في أوراق الشجر ، وتهز من حين لآخر ، فوق رأس زينايدا ، غصناً طويلاً في إحدى شجيرات العليق . كان الحمام يهدل ، والنحل يطن ويطير قريبا من الأرض ، فوق الحشائش القليلة . وكانت الشمس من علٍ ،زرقاء لامعة- بينما كنت حزيناً ...

قالت زينايدا بصوت خفيض ، واعتمدت على مرفقها :

– اقرأ لي شعراً . إني أحب إنشادك . فأنت تنشده مترنماً . لكن هذا لا يهم ،فذلك آتٍ من صغرك . اقرأ لي "فوق تلال جورجيا" . لكن اجلسْ أولا .

وجلست وأنشدت "فوق تلال جورجيا" .

وكررت زينايدا قولي "القلب لا يختار إلا الهوى"

ثم قالت :

– هنا يكون الشعر جميلا رائعا ، إنه لا يعرض لنا الأمر كما هو ، ولا يعرضه خيرا مما هو فحسب ، بل أقرب منه إلى الحق . "لا يختار إلا الهوى" .

– قد لا يريد هذا ، ولكن لا مفر له منه .

وعادت إلى الصمت . ثم هبت واقفة فجأة :

– هيا بنا ، إن ميدانوف مع والدتي في المنزل . وقد أتاني بقصيدته ، لكن تركته . إنه الآن يشعر بالألم أيضا . . . لاحيلة لي في ذلك! ستفهم الأمر كله يوماً . . . لكن لا تغضب مني!

ضغطت زينايدا يدي في سرعة ، ومضت تجري قدماً . وعدنا إلى المسكن . وشرع ميدانوف يقرأ لنا قصيدته "السفاح" وكانت قد طبعت

منذ قليل . لكن لم أسمعه ،كان يصيح ويمد النطق في رباعياته ، وقوافيه المتبادلة ترن كالأجراس الصغيرة ،صاخبة لا معنى لها ؛ بينما كنت لا أزال أرقب زينايدا ، وأحاول أن أفهم معنى كلماتها الأخيرة .

وفجأة صاح ميدانوف من أنفه :

أي غريم بدهكْ ومستبدّ ولهكْ

قال هذا- فتلاقت عيناي وعينا زينايدا . غضَت بصرها واحمرّ وجهها قليلاً . ورأيت الدم يصعد إلى وجهها ،فجمدتُ من الرعب . كنت أغار من قبل ، لكني في هذه اللحظة فحسب ، لمع في خاطري أنها تحب .

- يا إلهي! إنها تحب!

١٠

بدأتْ آلامي الحقيقية من تلك اللحظة . كنت أشحذ فكري ، وأغير رأيي ، ثم أغيره من جديد ، وأراقب زينايدا رقابة متصلة ، وإن كانت خفية على قدر الإمكان . لقد طرأ عليها تغيير ما ، كان ذلك واضحاً . لقد بدأت تسير وحدها–وتطيل السير . كانت أحيانا لا تقابل زوارها ، وقد تجلس في حجرتها ساعات متصلة ، ولم تكن تلك عادتها حتى الآن . وأصبحتُ فجأة – أو خُيلَ إليّ أني أصبحتُ– نافذ البصيرة إلى حد عجيب . كنت أمر على المعجبين بها واحداً بعد واحدٍ وأسائل نفسي وبي قلق داخلي "أليس هو هذا ؟ أليس هو ذاك ؟" . بدهني أن الكونت مالفسكي ، يُخشى منه أكثر من غيره ، ولو أني –إجلالا لزينايدا– كنت أخجل من مكاشفة نفسي بذلك . وكنت في هذه الرقابة ، لا أرى أبعد من أنفي ، ولعل خفاء رقابتي لم يخدع أحداً . ومهما يكن ، فسرعان ما وقف الدكتور لوشين على دخيلة نفسي . لكنه هو الآخر ، كان قد طرأ عليه أخيرا بعض التغيير . بدا عليه النحول ، وكان كثيراً ما يضحك ، لكن ضحكته زادت قصراً وفراغاً وحقداً . وحلّ عنده التهيج العصبي اللاإرادي ، محل سخريته الخفيفة السابقة ، وما كان يدعيه من النقمة على البشر .

– لماذا تحوم هنا دائما أيها الشاب ؟

قال لي ذلك يوما ، وقد تُركنا وحيدين في ثوى آل زاسيكن .

(كانت الأميرة الصغيرة قد خرجت في نزهة ولم تعد إلى المنزل ، وكنا نسمع صوت الأميرة العجوز ، ينبعث إلينا حاداً وهي تنهر الخادمة) :

– إن عليك أن تدرس وتعمل . وأنت صغير . ولكن ما الذي تعمله ؟

أجبته بشيء من الكبرياء ، لكن بشيء من التردد أيضاً :

– من يدريك ، لعلي أعمل في المنزل .

– ما أكثر عملك! ليس هذا ما تفكر فيه! حسن ، لن أرميك بالخطأ . . . فتلك هي طبيعة الأمور في سنك . لكنك كنت تعساً كل التعاسة فيما اخترت . ألا ترى أي شيء هذا البيت ؟

قلت :

– إني لا أفهمك .

– لا تُفهمني ؟ هذا يزيد الأمر سوءاً ، إني أرى من الواجب أن أحذرك . يستطيع العزابُ الكبار مثلي أن يأتوا هنا ، فأي ضرر يمكن أن يصيبنا من ذلك! نحن صلاب ، لا شيء يؤذينا ، أجل ، أي ضرر يمكن أن يصيبنا من ذلك ؛ لكن جلدك ما زال رقيقاً – وهذا الجو يضرك – صدقني – قد يصيبك منه أذى .

– كيف ذلك ؟

– كيف ، هل أنت الآن بخير ؟ هل أنت في حالة طبيعية ؟ هل ينفعك ما تحس به ، وهل تجد فيه خيرك ؟

– كيف ، ما الذي أحس به ؟

قلت هذا وأنا أدرك في نفسي أن الطبيب على حق .

مضى الطبيب يقول ، بنغمة توحي أن كلماته تنطوي على إهانة بالغة لي :

– آه ، أيها الشاب ، أيها الشاب – ما جدوى التمويه ، وما في قلبك – والحمد لله – بادٍ على وجهك في وضوح ؟ لكن ما فائدة الكلام

إذاً ؟ لم أكن لآتي إلى هنا لو . . .(وضغط الطبيب على شفتيه) . . .لو لم أكن شخصا غريباً . إن هذا هو الذي يدهشني : كيف أنك بذكائك لا ترى ما يجري حولك ؟

قلت مستوفزاً :

– وما الذي يجري حولي ؟

فنظر إليَّ الطبيب بنوعٍ من الشفقة الساخرة .

قال كأنما يخاطب نفسه :

– يا لي! كأنما هو في حاجة إلى معرفة شيء من الأمر .

وأردف بصوت عالٍ:

– أقول لك حقاً ، مرة أخرى ، إن الجو هنا لا يلائمك . إنك تحب أن تكون هنا ، لكن أي جدوى من هذا ؟ هنا منزل ريفي جميل شذيٌّ ،لكن لا حياة فيه . أجل! افعل ما آمرك به ،وعد إلى صاحبك كيدانوف . ودخلت الأميرة العجوز ، وبدأت تشكو للطبيب آلام أسنانها . ثم بدت زينايدا .

فقالت الأميرة العجوز :

– تعال ، يجب أن تزجرها يا دكتور . إنها تشرب ماء مثلجاً طول النهار . قل لي بربك ، أليس هذا مضراً لصدرها الرقيق ؟

سألها لوشين :

– لِمَ تفعلين هذا ؟

– ماذا ، أي شيء في ذلك ؟

– أي شيء فيه ؟ قد يصيبك برد وتموتين .

– حقا ؟ أتعني هذا ؟ حسن جداً–هذا أفضل .

تمتم الطبيب :

– يا لها من فكرة!

وكانت الأميرة العجوز قد خرجت ، فكررت زينايدا :

– أجل ، يا لهـا من فكرة! هل الحـيـاة أمـر نفـرح له ونبـتـهج ؟ تلفت حواليك . . . أبديعة هي إذاً ؟ أم أنك تظنني لا أفهمها ، ولا أحسُّ بها ؟ إني أشعر بمتعة في شرب الماء المثلج . هل تستطيع أن تؤكد لي جاداً ، أن مثل هذه الحياة تساوي لحظة من المتعة ، ولا أقول من السعادة ؟

فقال لوشين :

– أوه ، حسـن جداً! النزوة ، والتطلق . . . هاتان الكلمتان تلخصان أمرك ، إن طبعك كله ينحصر في هاتين الكلمتين .

فضحكت زينايدا ضحكة عصبية .

– إن الأمـر خـرج من يدك أيها الطبيب العـزيز–إنك لا تحسن النظر ، ضع عويناتك ، لست الآن في نزوة . إما أن أستغفلكم ، أو أستغفل نفسي . . . فأي ظرف في هذا! وأما التطلق . . . .

وأضافت زينايدا فجأة وهي تضرب الأرض بقدمها :

– يا سيد فولدمار ، لا يكنْ وجهك مغتماً هكذا . . . أنا لا أستطيع احتمال الناس حين يشفقون بي .

وخرجت من الحجرة مسرعةً.

قال لي لوشين مرة أخرى :

– هذا الجو يضرك أيها الشاب ، يضرك جداً.

11

في مساء ذلك اليوم ، اجتمع الضيوف المعهودون في مسكن آل زاسيكن وكنت بينهم .

دار الحديث حول قصيدة ميدانوف . وأبدتْ زينايدا إعجاباً خالصاً بها . قالت له :

– لكن ما رأيك ، لو كنت شاعرة لاخترت موضوعات تختلف كل الاختلاف عن موضوعك . ربما كان ذلك كله هراء ، لكن أفكاراً غريبة تدور أحيانا بخاطري ، وبخاصة حين أكون نائمة في الصباح المبكر ، حين تبدأ السماء فتصير وردية رمادية معاً .كنت أصف مثلا . . .هل تضحكون مني ؟ فصحنا جميعاً في صوت واحد :

–لا ، لا .

فمضت تقول وهي تعقد ذراعيها حول صدرها ، وتسرح طرفيها :

– كنت أصف جماعة كبيرة من الفتيات الصغيرات ، يركبن بالليل زورقاً كبيراً ، في نهر هادئ . القمر يلمع ، وكلهن يلبسن البياض ، ويضعن أكاليل من الزهر الأبيض ، وينشدن – كما تعلمون– شيئاً كالتراتيل . . .

قال ميدانوف حالما :

– إني فاهم– فاهم ، أكملي .

– وإذا بضجة عالية ، وضحك ، ومشاعل ، وطبول على الشاطئ . . .

كانت فرقة من أتباع باكوس يرقصون بأغان وصيحات . إن مهمتك أن تصور هذا ، أيها السيد الشاعر ؛ كل ما أريد ، هو أن تكون المشاعل حمراء ، ينبعث منها دخان كثيف ، وعيون أتباع باكوس تلمع تحت جدائلهم ، وتكون الجدائل مغبرة . ولا تنس جلود النمر أيضا ، والأقداح والذهب -أكواما من الذهب . . .

سألها ميدانوف ، وقد طرح شعره الناعم إلى الوراء ، ونفخ منخريه :

– وأين ينبغي أن يكون الذهب ؟

– أين ؟ على أكتافهم وأذرعهم وأرجلهم – في كل مكان . يقال إن النساء في العصور القديمة كن يضعن خلاخيل من الذهب عند كعوبهن . . .

يدعو أتباع باكوس فتيات الزورق إليهم . وتكف الفتيات عن إنشادهن -لا يستطعن أن يمضين في الغناء ، لكنهن لا يتحركن- ويحملهن النهر إلى الشاطئ . وفجأة تنهض إحداهن في بطء . . . ويجب أن تصف هذا وصفا جميلا . . . وكيف تنهض متمهلة في ضوء القمر ، وكيف تخاف رفيقاتها . . . وتخطو فوق حافة الزورق يحيط بها أتباع باكوس ، ويدورون بها حتى تختفي في الليل والظلام . . . ولتجعلْ هنا السحب دَخنةً ، وكل شيء مختلطاً مُشوشاً . . . ولا يصل إلى الأذن سوى صياحهن الحاد ، وقد تركت طاقتها ملقاة على الشاطئ .

وسكتت زينايدا . (قلت لنفسي ثانياً : أوه ، إنها تحب!)

وسألها ميدانوف :

– أهذا كل شيء ؟

– هذا كل شيء .

فقال مزهواً :

– هذا لا يصلح موضوعاً لقصيدة كاملة . لكني سأنتفع بفكرتك في وضع قطعة غنائية .

فسأل مالفسكي :

– في أسلوب رومانتيكي ؟
– طبعا ، في الأسلوب الرومانتيكي– على طريقة بيرون .
فقال الكونت الشاب في غير اكتراث :
– إن هيجو في رأيي ، يفوق بيرون ، إنه أكثر إمتاعاً .
أجابه ميدانوف :
– إن هيجو كاتب من الطراز الأول . ثم إن صديقي تونكوشيف في قصيدته الإسبانية "..El Trovador
فقاطعته زينايدا :
– آه ، أهو ذلك الكتاب ذو علامات الاستفهام المقلوبة ؟
– أجل ، تلك هي العادة في الإسبانية . كنت أقول إن تونكوشيف . . .
فقاطعته زينايدا مرة أخرى :
– إنك ستجادل ثانياً في الكلاسيكية والرومانتيكية .خير لنا أن نلعب .
فقال لوشين :
– الغرامات ؟
– لا ، إن الغرامات شيء ممل . بل نلعب التشبيهات (وكانت هذه لعبة استحدثتها زينايدا . كانوا يذكرون شيئا ، ثم يحاول كل واحد منهم أن يشبهه بشيء ، ومن يأتِ بأفضل تشبيه ، يأخذْ جائزة) .
مضت إلى النافذة . كانت الشمس آنذاك تغرب . وكان في كبد السماء غيوم كبيرة حمراء .
سألت زينايدا :
– أي شيء هذه الغيوم ؟
ولم تنتظر رداً ، بل قالت :
– أظنها تشبه القلوع الأرجوانية في سفينة كليوباترا الذهبية ، حين أبحرت لتقابل أنطونيو . أتذكر يا ميدانوف أنك كنت تحدثني عنها من زمن بعيد ؟
وإذا بنا جميعاً – مثل بولونيوس في قصة هاملت– نعتقد أن الغيوم لا تذكرنا بشيء مثلما تذكرنا بهذه القلوع ، وأنه لا يستطيع أحد

منا أن يأتي بتشبيه أروع من هذا .
سألت زينايدا :
– وكم كان عمر أنطونيو حينذاك ؟
قال مالفسكي :
– كان شاباً دون شك .
فأمن ميدانوف على ذلك مؤكداً :
– أجل لقد كان شاباً .
فصاح لوشين :
– أرجو المعذرة–إنه كان فوق الأربعين .
فكررت زينايدا وهي ترميه بنظرة خاطفة :
– فوق الأربعين . . . .
وعدت إلى بيتي مسرعاً . وأعادت شفتي دون وعي :
– إنها تحب . . . ولكن ، مَنْ تحب ؟

١٢

مــرت الأيام . وزينايدا تزداد غــرابةً على غــرابة ، وغــمــوضــاً على غموض . ذهبتُ يوماً إليها ، فوجدتها جالسة على كرسي من القش ، وقد ضغطت برأسها حافة المائدة الحادة . تمالكت نفسها . . .كان وجهها كله مخضلا بالدمع ، قالت في ابتسامة قاسية :

– آه ، أنت! تعال هنا!

فذهبت إليها . ووضعت يدها فوق رأسي ، وأمسكت شعري فجأة ، وأخذت تشده .

وأخيرا قلتُ:

– إن ذلك يؤلمني .

أجابت :

– آه! يؤلمك ؟ وهل تظن أنه لا يؤلمني شيء ؟

وصاحت فجأة إذ وجدت أنها اقتلعتْ خصلة صغيرة من الشعر :

– إيْ ما الذي فعلتهُ ؟ مسكين ياسيد فولدمار!

ومسحت الشعر الذي اقتلعته ، في عناية ، ولفته حول إصبعها كالخاتم .

قالت ، والدموع لا تزال تتألق في عينيها :

– سأضع شعرك في حميلة ، ألبسها حول عنقي ، وسيكون لك في هذا بعض العزاء ، وربما . . . والآن ، وداعا .

عدت إلى منزلي ، فلقيت هناك ما لا يسرني . كانت أمي في شجار

مع أبي ، كـانت تـلومـه على أمـر مـا ، بينمـا كـان على عـادتـه يلزم الهـدوء البـارد اللطيف ، وسـرعان مـا تـركـهـا . لم أستطع أن أسـمع مـا قالتـه أمي ، والحق أني لم يكن عندي من التفكير ، ما أصرفه إلى هذا . ولا أذكر سوى أن أمي أرسلت إليَّ في حجرتها ، بعد أن انتهى حديثها مع أبـي ، وأشارت في غـضب شـديد إلى زياراتي الكثيـرة للأمـيـرة – التي كـانت على حد قـولها– امـرأة يتأتـى منها كل شيء (une femme capable de tout) قبلت يدها ، (وهذا مـا كنت أفـعله حين أريد قطع الحـديث) ومـضـيت إلى حجـرتي . لقد قـهرتني دموع زينايدا . لـم أعـرف حقـاً فيم أفكر ، وكدت أبكي بدوري . كنت طفلاً ، على كل حال ، رغم أعوامي الستـة عشـر . لم أعـد أفكر في مالـفسكي ، وإن بدا بيلفـزوروف متـوعـداً يومـا بعـد يوم ، ينظر إلى الكونت الماكـر بعين متـقدة كنظرة الذئب إلى الشـاة ، لكني لم أفكر في شيء ، ولم أفكر في أحـد . كنت غـارقـاً في التـخـيـلات ، وكنت دائماً أنشد العزلة والوحدة . كنت بوجه خاص مغرماً بالمستنبت المتهدم ، فـربما صعدت الجدار المرتفع ، وجثمت ، وجلست هناك ، فتى بائسـاً وحيداً مكتـئبـاً ،حتى أسفت لنفسي ، كم كنت أجـد العـزاء في هذه المشـاعـر الحزينة البـاكيـة ، وكم كنت أسـعد فيـها . كنت يومـاً أجلس فوق الحائط ، ناظـرا إلى الأفق البـعـيـد ، أصـغي إلى دق الأجـراس . . .وفـجـأة هفـا شيء إليَّ ، . . .لم يكـن نسـمة ريح ، ولـم تكن رعدة في بدنـي ، بل كـانت كـأنها نغـمة من الشـذى – أو شـعور باقتـراب أحد . . نظرت إلى أسفل . كـانت زينايـدا هناك تقطع الـدرب مسـرعـة ، وعليـهـا دثار خـفـيف رمـادي ، وعلى كـتفيـها مظلة وردية اللون . وقع بـصرها عليَّ ،فوقفت ، ودفعت إلى الوراء بحافة قبعتها المصنوعة من القش ، ورفعت إليَّ عينيها الناعمتين . . .

سألتني بابتسامة فيها نوع من الغرابة :

– ماذا تفعل هناك على مثل ذاك المرتفع ؟ ومضت تقول :

– تعال ، أنت تعلن دائمـا أنك تحبني . . .اقفز إلى الشـارع نحوي إذا كنت حقاً تحبني .

لم تكد زينايدا تنطق بهذه الكلمات ،حتى هويت إلى الأرض ، كأن أحدا دفعني بقوة من خلفي . كان ارتفاع الحائط أربعة عشر قدماً تقريباً .

نزلت إلى الأرض على قدمي ، لكن الصدمة كانت قوية فلم أستطع الوقوف . سقطت ، ولبثت لحظة مغشياً عليَّ . فلما تمالكت نفسي أحسست زينايدا بقربي ، دون أن أفتح عينيَّ . كانت تقول وقد انحنت عليَّ وبدا في صوتها نغمة من الرقة والفزع :

– ولدي العزيز ، كيف أمكنك أن تفعل ذلك يا عزيزي ، كيف أمكنك أن تطيع ؟ . . . أنت تعلم أني أحبك . . . انهض .

كان صدرها يخفق قريباً مني ، ويداها تداعبان رأسي ، وفجأة – يا لمشاعري في تلك اللحظة– بدأت شفتاها الناعمتان الغضتان تغمران وجهي بالقبل . . . لمستا شفتيَّ . . وكأن زينايدا أدركت من وجهي أني استعدت وعيي ، وإن لبثتُ مغمض العينين ، فنهضت مسرعاً عند قدميها . قالت :

– هيا ، قم أيها الولد الخبيث الأرعن ، لمَ ترقدُ في التراب ؟

وقمت . فمضت زينايدا تقول :

– هات لي مظلتي ، لقد رميتها في مكان ما ، ولا تحدق فيَّ هكذا . . . يا له من عبث مضحك! لم يصبك أذى ، أليس كذلك ؟ خدشتك الأشواك ؟ أقول لك لا تحدق فيَّ . . . ثم أضافت كأنما تحدث نفسها :

– لكنه لا يفهم ، ولا يجيب . . عد إلى منزلك يا سيد فولدمار ، ونظف نفسك ، وإياك أن تتبعني ، وإلا غضبت منك ، ولم أعد قط . . .

ولم تتم عبارتها بل مضت عني مسرعة ، بينما جلست على جانب الطريق . . .

لم تقوَ ساقاي على حملي . لقد خدشت الأشواك يديَّ ، وآلمني ظهري ، ودارَ رأسي ، لكن الحبور الذي أحسست به حينذاك ، لم أعهده مرة أخرى طوال حياتي . واستحال هذا الحبور ألما حلوا في كل أطرافي ، نمتْ عنه آخر الأمر قفزات ووثبات وصيحات مبتهجة . أجل ، كنت لا أزال طفلا .

١٣

كنت فخورا مرتاح البال طوال ذلك اليوم ، استعدت إحساسي بقبلات زينايدا على وجهي ، وتذكرت في هزة من الفرح كل كلمة نطقت بها . واحتضنت سعادتي المفاجئة حتى أحسست بالخوف حقاً، وأحسست حقا بالعزوف عن رؤيتها ، تلك التي أحيت فيّ هذه المشاعر الجديدة . خُيلَ إليَّ أني لا أتمنى الآن من القدر شيئاً بعد هذا ، وأنه جدير بي أن "أذهب وأرسل زفرة عميقة أخيرة وأموت" لكني حين دخلت المسكن في اليوم التالي ، أحسست بارتباك شديد ، حاولت أن أخفيه وراء ستار من الثقة والحياء ، يليق برجل يريد أن يبدي قدرته على كتمان السر . لقيتني زينايدا ببساطة تامة وبدون عاطفة ، وكان همها أن تهز أصبعها لي ، وتسألني ألم تصبني رضوض . وفجأة اختفت الثقة والحياء والاستخفاء ، كما اختفى معها ارتباكي . لم أكن طبعا أتوقع شيئاً بذاته ، لكن هدوء زينايدا كان كدلو من الماء البارد صبَّ على رأسي . وتحققت أني كنت عندها طفلا . وكنت بائسا جدا!

وذرعت زينايدا الحجرة جيئة وذهوباً ، تبسم لي بسمة سريعة كلما تلاقت أعيننا ، لكن أفكارها كانت بعيدة عني ، وأدركت هذا بجلاء . . . وقلت في نفسي :

– هل أبدأ الكلام فيما حدث بالأمس ، وأسألها إلى أين كانت

تمضي هكذا حتى أكشف الأمر وانتهي . . .لكني بحركة يائسة ،اكتفيت بأن ذهبت وجلست في ركن من الأركان .

دخل بيلفزوروف ، فأحسست براحة لرؤيته .

قال بصوت جاف :

– لم أستطع أن أجد لك حصاناً وديعا ،وقد ضمن فريتاج جواداً، لكني لا أثق به ، وأخشى . . .

قالت زينايدا :

– هل لي أن أسألك ما الذي تخشاه ؟

– ما الذي أخشاه ؟ إنك لا تعرفين كيف تركبين . اللهم احفظنا من كل سوء! أي نزوة تلك التي تملكتك فجأة ؟

– مهلا ، إن هذا شأني يا سيدي الوحش . وإلا فسأطلب ذلك من بيوتر فاسيليفيتش . . .(كان اسم والدي بيوتر فاسيليفيتش .وقد دهشت لذكرها اسمه بمثل هذه البساطة والتحرر ، كأنما كانت واثقة من استعداده لخدمتها) .

رد بيلفزوروف :

– أوه ، حقا ، أتعنين إذاً أنك ستركبين معه ؟

– معه أو مع غيره ، ذلك أمر لا يعنيك . على كل حال ، لن أركب معك .

أعاد بيلفزوروف :

– لن تركبي معي ، ليكن ما تريدين . حسن ، سآتيك بجواد .

– أجل ، وإياك إذاً أن تأتي إليَّ بجواد كالبقرة العجفاء . إني أحذرك ، فأنا أريد أن أركض .

– اركضي كما تشائين . . . مع مَنْ ؟ أتركبين مع مالفسكي ؟

– لِمَ لا أركب معه أيها المشاكس ؟ مهلاً ، كن هادئاً.

وأضافت :

– لا تثرْ ، سأركب معك أيضا . أنت تعلم أن مالفسكي الآن عندي

–أغ . وهزت رأسها . . . فغمغم بيلفزوروف . . .

– إنك تقولين هذا عزاء لي .

فأسبلت زينايدا أجفانها . . .

– أيعزيك هذا يا . . . يا . . . أيها المشاكس!

قالت أخيرا كأنها لم تجد كلمة أخرى . . .

– وأنت يا سيد فولدمار ، أتأتي معنا ؟

فتمتمت وأنا لا أرفع بصري . . .

– انا لا أريد أن . . . مع جماعة كبيرة .

فعلقت على قولي متنهدة :

– أنت تفضل الخلوة tete a tete حسن ، لتكن الحرية للأحرار ، والجنة للقديسين . . .

ثم قالت :

– اذهب يا بيلفزوروف . تحرك ، يجب أن يكون عندي جواد غدا .

فقالت الأميرة العجوز :

– أوه ، ومن أين يأتي بالمال ؟

فعبست زينايدا :

– لن أطالبك به . إن بيلفزوروف يثق بي .

فغمغمت الأميرة العجوز :

– إنه سيثق بك ، أليس كذلك ؟

ثم صاحت فجأة بأعلى صوتها :

– دُنياشكا!

فقالت زينايدا :

– ماما ، لقد أعطيتك جرساً تدقينه .

فكررت السيدة العجوز :

– دُنياشكا!

وخرج بيلفزوروف ، فخرجت معه . لم تحاول زينايدا أن تستبقيني .

١٤

نهضت مُبكراً في اليوم التالي ، وقطعتُ لي عصا ، وسرت خارج المدينة . ظننت أني ربما سريت عن نفسي أحزاني . كان يوماً رائعاً مشرقاً غير شديد الحر ، وكان هناك نسيم رطب ممراح يسري على الأرض بحفيف لطيف وعبث ، ويجعل كل شيء يخفق ولا يضطرب . تجولت وقتاً طويلاً فوق التلال وبين الغابات ، ولم أكن أشعر بالسعادة فقد غادرت داري لأسلم نفسي للكآبة . . . لكن الشباب والجو الرائع والهواء النقي ، ولذة الحركة السريعة وحلاوة الراحة والرقاد على العشب الكثيف في زاوية منعزلة ، كل ذلك ملك عليَّ نفسي . وطغت عليَّ مرة أخرى ذكريات هذه الكلمات التي لن تنسى ، وتلك القبلات . كان يحلو لي أن أفكر في أن زينايدا لا تملك بحال إنكار شجاعتي ، وبطولتي . . . قلت في نفسي : قد يبدو الآخرون عندها خيراً مني . . . ليكن! لكن يكفي أن الآخرين يتحدثون بما سوف يعملون ، بينما أتحدث أنا بما فعلت . وأي شيء بعد هذا لا أفعله من أجلها ؟ . . ولأخذت الأوهام تتوارد على خاطري . شرعت أصور لنفسي كيف أنقذها من يد الأعداء ، وكيف أخلصها بالقوة من السجن ، والدم يغمرني ، ثم أموت عند قدميها . وتذكرت صورة علقت في حجرتنا ، كانت صورة الملك العادل يختطف متلدا ، وفي تلك اللحظة ، استغرق انتباهي منظر نقار أرقط ، كان منهمكاً في تسلق جذع نحيف لشجرة من أشجار البتولا ، ويختلس النظر من ورائها في اهتمام ، مرة عن يمين ثم عن شمال ، كما ينظر موسيقي من وراء فيلونسل . ثم غنيت "لا

الثلوج البيضاء" وتركت هذه الأغنية إلى أغنية شهيرة في ذاك الوقت . "إني أنتظرك حين يلهو النسيم" ثم بدأت أتلو بصوت عال خطابَ "يرمك" إلى "النجوم" في مأساة همياكوف .

وحاولت أن أنظم من عندي شيئاً عاطفياً ، وألفتُ السطر الذي يختم كل رباعية "يا زينايدا ، يا زينايدا" لكني لم أستطع أن أضيف إلى ذلك شيئاً . وفي الوقت نفسه ، كان موعد الغداء يقترب ، فرحت أسير في الوادي ، وكان يخترقه درب ضيق رملي يفضي إلى المدينة . فسرت أقطع ذلك الدرب . . . يدويّ من ورائي وقع مُمضٍّ لحوافر خيل . تلفتُ حولي بحركة غريزية ، وجمدت مكاني ، وخلعت قبعتي . لقد رأيتُ أبي وزينايدا ، كانا يركبان متجاورين ، وكان أبي يقول لها شيئاً وهو مائل عليها ، ويده معتمدة إلى رقبة الجواد ، وكان يبتسم . كانت زينايدا تنصت إليه في سكون وقد أرخت بصرها إلى الأرض في حدة وزمّت شفتيها . رأيتهما أول الأمر وحدهما ، لكني بعد لحظات قليلة ، رأيت بيلفزوروف يبدو في منعطف الدرب ، يلبس بزة فارس ، وعليها عباءة ، ويمتطي صهوة جواد فريد أسود . كان الجواد الأصيل يرفع رأسه ، وينخر ويشب من جانب إلى جانب ، وكان راكبه يقبض على زمامه ويحثه على الركض في آن واحد . انتحيتُ جانباً . وجمع أبي الأعنّة في يده ، وبعدَ عن زينايدا ، فرفعت بصرها إليه في بطء .

ومضى الاثنان يركضان . . . وتبعهما بيلفزوروف وسيفه يصلصل من ورائه . قلت لنفسي : إنه أحمر كأربيانة ، بينما تبدو هي . . . مالها شاحبة هكذا ؟ أتقضي الصباح كله في الركض ، وتشحب ؟

أسرعت خطاي ، ورجعت إلى منزلي في موعد الغداء تماما . كان أبي قد جلس إلى جانب أمي ، وارتدى ثيابه للطعام وبدت عليه النظافة والنضارة . كان يقرأ مقالا في (Journal des Debats) ، بصوته الموسيقي الناعم ، لكن أمي كانت تستمع إليه دون انتباه . ولما رأتني سألتني أين كنت النهار بطوله ، وأضافت إنها لا تحب هذا التجوال في مكان يعلمه الله ويعلم رفاقي فيه . كدت أجيب "لقد كنت أمشي وحيداً" لكني نظرت إلى أبي ، ولأمرٍ ما ، لزمت الصمت .

١٥

لم أكد أرى زينايدا في الخمسة أو الستة الأيام التالية .قالت إنها مريضة وإن لم يمنع هذا ضيوفها المألوفين من زيارة المسكن ، ليؤدوا واجبهم جميعاً - كما كانوا يقولون- ما عدا ميدانوف الذي سرعان ما أصبح مغموماً عابساً حين فاتهُ أن يبدي غيرته . وجلس بيلفزوروف مكتئباً محمرّ الوجه في ركن من الأركان ، وقد زر ملابسه إلى حلقه . وكانت ترف دائما على وجه مالفسكي المنعم ، بسمة شريرة . كانت زينايدا قد غضبت عليه ، فلازم الأميرة العجوز ملازمة خاصة ، بل استأجر عربة خاصة وصحبها لزيارة المحافظ العام . ومهما يكن ، فقد باء تصرف مالفسكي هذا بالفشل ، بل أدى به إلى تجربة قاسية ،فقد ذُكر بفضيحة له مع بعض الضباط المهندسين ، واضطر في تفسيره لها أن يحتج بصغر سنه وقلة تجاربه في ذلك الحين . وكان لوشين يأتي مرتين في اليوم ،لكنه لا يلبث طويلا . كنت أخشاه بعض الخشية ، إثر حديثنا الأخير الصريح ، وكنت أشعر في الوقت نفسه بميل صادق إليه . وفي يوم من الأيام ، سار معي يتجول في حدائق نسكتشني ،وكان لطيفاً دمثاً ، وأخذ يذكر لي أسماء كثير من النباتات والزهور ، وصفاتها ، وفجأة ، صاح دون مناسبة وهو يلطم جبهته :

- وأنا الأحمق المسكين ، ظننتها لعوباً! الظاهر أن تضحية النفس شيء لذيذ عند بعض الناس!

سألته :

– ماذا تعني بذلك ؟

فأجابني لوشين بعبارة جافة مقتضبة :

– لا أعني أن أخبرك بشيء .

وكانت زينايدا تتجنبني . لاحظتُ أن وجودي يضايقها – فقد كانت بالرغم منها تبتعد عني . . . أجل! بالرغم منها ؛ وكان هذا أشد ما يؤلمني ، كان هذا هوالذي حطمني! لكن ، لم تكن لي حيلة في ذلك ، فحاولت أن أتنكب طريقها ، وأكتفي بأن أرقبها من بعيد ، وإن لم أفلح في ذلك دائما . لقد حدث لها – كما سبق أن حدث– شيء لم يصل إليه إدراكي ، تغير وجهها ، وتغير فيها كل شيء . راعني بخاصة ذلك التغيير الذي طرأ عليها في مساء هادئ دافئ . كنت جالسا على مقعد وطيء من مقاعد الحديقة ، تحت شجيرة عتيقة ممتدة الغصون ، وكنت مغرماً بهذا الركن المنعزل ، كنت أستطيع أن أرى منه نافذة حجرة زينايدا . جلست هناك ؛ كان فوقي طائر صغير مشغول بالقفز بين ظلمة الأوراق . وكانت قطة رمادية تزحف حول الحديقة بحذر ، وهي تمد أطرافها مداً ، والهوام المبكرة تطن طنيناً رتيباً ثقيلاً في الجو الذي لا يحجب الرؤية ، وإن لم يكن منيراً ، جلست وحدقت في النافذة ، وانتظرت لعلها تفتح ، وقد فتحت وظهرت فيها زينايدا . كانت تلبس ثوبا أبيض ، وكانت هي ، بوجهها وكتفيها وذراعيها ، بيضاء من فرط الشحوب . بقيتْ زمنا طويلا لاتتحرك ، ناظرة إلى الأمام من تحت حاجبيها المعقودين . لم أرها تنظر مثل هذه النظرة قط . عقدت يديها بإحكام ، ورفعتهما إلى شفتيها وجبينها ، وفجأة فكت أصابعها وألقت بشعرها وراء أذنيها ، وطرحته ثم أحنت رأسها بنوع من العزم ، وأغلقت النافذة بعنف .

وبعد ثلاثة أيام ، قابلتني في الحديقة ، التفتُّ عنها ، لكنها أوقفتني .

قالت لي بلطفها القديم :

- أعطني ذراعك ، لقد مرّ وقت طويل دون أن نتحدث معاً.

واسترقت نظرة إليها .كانت عيناها تفيضان بنور ناعم ، وجهها كأنه يبسم خلال الضباب .

سألتها :

- أما زلت معتلةً؟

أجابت :

- لا ، زال عني كل ذلك الآن .

وقطفت وردة صغيرة حمراء . . .

- أشعر بقليل من التعب ، ولكن ذلك سيزول أيضا .

سألتها :

- وهل تعودين كما كنت ؟

رفعت زينايدا الوردة إلى وجهها ،فخيل إلي أن أوراقها الناضرة قد انعكست على خديها .

سألتني :

- لِمَ ، هل تغيرتِ ؟

أجبتها بصوت خفيض :

- أجل- لقد تغيرت .

فبدأت زينايدا تقول :

- إني أعلم أني كنت باردة معك ، لكنْ يجبُ ألا تهتم لهذا . . .لم تكن لي حيلة فيه . . . مهلا! لم نتحدث في هذا!

صحت في عبوس وثورة لا إرادية :

- أنت لاتريدين أن أحبك . هذا كلُ ما في الأمر .

- كلا ، أحببني ، لكن بطريقة أخرى .

- كيف إذاً؟

- لنكن صديقين ، هيا . . .(وأعطتني زينايدا الوردة أشمها) -

اسمع- أنت تعرف أني أكبرك بأعوام كثيرة ، إني كعمتك ، حسن ، أولا ، بل كأختك الكبرى ، وأنت . . .

قاطعتها :

- أنت تظنينني طفلا .

- حسن ، أجل . إني أظنك طفلا ، لكنك طفل عزيز طيب ذكي . أحبه حباً شديداً . أتعلم ما يجول بخاطري ؟ إني منذ اليوم ، سأنعم عليك بمرتبة وصيف لي ، ولا تنس أن الوصيف يجب أن يلازم سيدته . إليك شارة وظيفتك الجديدة . . .

وأضافت وقد وضعت الوردة في عروة سترتي :

- شارة نعمتي عليك .

قلت هامساً :

- كان لك مرة ، نِعمٌ أخرى .

فقالت زينايدا وقد حدجتني بنظرة :

- آه! أي ذاكرة عنده! حسن ، إني مستعدة الآن . . .

ومالت عليَّ ، وطبعت على جبيني قبلة طاهرة وادعة .

اكتفيت بالنظر إليها وهي تمضي ، ثم قالت وهي تدخل المسكن :

- اتبعني أيها الوصيف .

وتبعتها- وكلي دهشة . قلت لنفسي :

- أمن الممكن أن تكون هذه الفتاة اللطيفة العاقلة ، زينايدا التي عرفتها ؟

وخيل إليَّ أن مشيتها كانت أهدأ من ذي قبل ، وأن كيانها أجل وألطف . ويا للرحمة! بأي قوة جديدة يضطرم الحب في نفسي!

١٦

وبعد العشاء ، التقت الجماعة في المسكن مرة أخرى ، وخرجت إليهم الأميرة الصغيرة . كانوا هناك جميعاً لم يتخلف منهم أحد ، كما كانوا في ذلك المساء الأول الذي لن أنساه . حتى نرماتسكي ظلع إليها يزورها ، وكان ميدانوف هذه المرة أول من حضر ، وأتى معه ببعض الأشعار الجديدة . وبدأ لعب الغرامات ثانياً ، لكن بدون الألاعيب الغريبة والهرج والصخب – تلاشت منها النزعة البوهيمية ، وجعلت زينايدا لألعابهم صبغة أخرى . جلست بجانبها ، إذ كنت وصيفاً لها . واقترحت فيما اقترحته ، أن كل من يلزم بدفع غرامة عليه أن يقص ما رآه في منامه، لكن ذلك لم يصب نجاحا ، فقد كانت الأحلام ، إما متكلفة مختلقة ، وإما غير شائقة (فقد حلم بيلفزوروف أنه أطعم فرسه سمكاً نهرياً ، وأن رأسها كانت من الخشب) . وأطرفنا ميدانوف بقصيدة من قصائده ، كان فيها قبور وملائكة تعزف على القيثار ، وزهور تتكلم ، وموسيقا تسري من بعيد .

لم تدعه زينايدا ينتهي منها ، وقالت :

– إذا كان لنا أن نسمع إنشاء ، فليروِ لنا كلٌّ شيئاً من عنده ، لا تكلف فيه .

كان على بيلفزوروف مرة أخرى أن يبدأ بالحديث .

ارتبك الضابط الشاب وصاح :

– لا أستطيع أن أؤلف شيئاً!

قالت زينايدا :

– أي هراء! حسن ، تخيل مثلا أنك تزوجت ، وقل لنا كيف تعامل زوجتك . أتحبسها في حجرة ؟

– أجل . أحبسها .

– وهل تبقى أنت معها ؟

– أجل . أبقى معها دون شك .

– حسن جدا . . فإذا ضاقت بذلك . وخدعتك ؟

– أقتلها .

– فإذا هربت ؟

– أقبض عليها وأقتلها أيضا .

– أوه . والآن ، أفرض أني كنت زوجتك ، فماذا تفعل إذاً؟

سكت بيلفزوروف لحظة ثم قال :

– أقتل نفسي . . .

وضحكت زينايدا :

– أرى أن قصتك غير طويلة .

وكانت الغرامة التالية لزينايدا . نظرت إلى السقف وراحت تفكر وأخيراً بدأت تقول :

– حسنا ، اسمعوا ، لقد دار بفكري . . . تصوروا قصراً رائعاً ، وليلة من ليالي الصيف ، وحفلة رقص بديعة ، أقامتها ملكة شابة . وفي كل مكان ، ذهب ومرمر وبللور ، وحرير وأضواء وجواهر ، وزهور وعطور ، وكل بدوات الترف .

قاطعها لوشين :

– أتحبين الترف ؟

أجابت :

إن الترف جميل ، وأنا أحب كل جميل

سألها :

- أكثر مما تحبين كل شريف ؟

- هذا سؤال بارع ، أنا لا أفهمه .لاتقاطعني .الحفل رائع إذاً، وهناك حشد من الضيوف ، وكلهم شاب وسيم شجاع ، وكلهم يحب الملكة في جنون .

سألها مالفسكي :

- أهناك نساء بين الضيوف ؟

- كلا ، بل انتظر لحظة- أجل ، هناك بعض النساء .

- أقبيحات هن جميعاً؟

- كلا ،بل فاتنات . لكن الرجال جميعا يحبون الملكة . إنها حسناء فارعة الطول . وعلى شعرها الفاحم تاج صغير من الذهب .

نظرت إلى زينايدا ، وخيل إليَّ في تلك اللحظة أنها أسمى منا جميعاً، لقد كان في جبينها المنبسط قوة وذكاء شديد وضاء . فقلت في نفسي :

- أنت هذه الملكة!

ومضت زينايدا تقول :

- وهم يتزاحمون جميعا حولها ، كلهم يسرف في تملقها .

سألها لوشين :

- وهل تحب التملق ؟

- ياله من شخص ممض! إنه دائما يقاطعني . . .من ذا الذي لا يحب التملق ؟

قال مالفسكي :

- لي سؤال أخير ، هل للملكة زوج ؟

- لم أفكر في هذا- كلا ، لِمَ يكون لها زوج ؟

فأمن مالفسكي على قولها :
– حقا ، لِمَ يكون لها زوج ؟
فصاح ميدانوف بالفرنسية ، وكان يتكلمها برداءة شديدة :
– Silence !
فقالت له زينايدا :
– Merci !
ثم مضت تقول :
– وهكذا تستمع الملكة إلى أحاديثهم ، وتستمع إلى الموسيقا ، لكنها لا تنظر إلى أحد من الضيوف . وهناك ست نوافذ مفتوحة من أولها إلى آخرها ، من السقف إلى الأرض ، ووراء هذه النوافذ ، سماء مظلمة فيها نجوم كبيرة ، وحديقة مظلمة ،فيها أشجار كبيرة . تحدق الملكة في الحديقة. وهناك نافورة بين الأشجار ، نافورة بيضاء بين الظلام ، ترتفع عالية ،عالية كطيف من الأطياف . وبين الحديث والموسيقا ،تستمع الملكة إلى خرير مياهها الناعم . إنها تحدق وتفكر : أنتم جميعا سادة نبلاء أذكياء ، أغنياء ، تحتشدون حولي وتقدسون كل كلمة أنطقها . وكلكم مستعد لأن يموت عند قدمي ، وأنا أستحوذ عليكم بسلطاني . . .ولكن ،هناك عند النافورة ، عند ذلك الماء الفياض ، يقف وينتظرني ذلك الذي أحبه ، ويستحوذ عليَّ بسلطانه . إنه لا يملك كسوة غالية ، أو جواهر ثمينة ، ولا يعرفه أحد ، لكنه ينتظرني ، واثقا من حضوري إليه– وسأحضر حقاً ، وليس في الدنيا قوة تستطيع أن تمنعني حين أريد الذهاب إليه ، والإقامة معه ، والاختفاء وإياه ، هناك في ظلمة الحديقة ، تحت همس الشجر ، وخرير النافورة . . .
وسكتت زينايدا .
سألها مالفسكي بخبث :
– أهذه قصة موضوعة ؟
فلم تكلف زينايدا نفسها النظر إليه .

وبدأ لوشين فجأة يقول :

– وماذا كنا نفعل أيها السادة لو كنا بين الضيوف ، وعرفنا الفتى السعيد عند النافورة ؟

فقاطعته زينايدا :

– انتظر لحظةً ، انتظر لحظةً ،سأخبركم بنفسي ماذا كان يفعله كل واحد منكم .كنت أنت يا بيلفزوروف تطلب مبارزته ، وأنت يا ميدانوف ، تنظم فيه أهجية . . .لا . . .أنت لا تستطيع نظم الأهاجي ، كنت تنظم فيه قصيدة طويلة في أسلوب (Barbier) ، وتدرجها في جريدة (Tel-egraph). وأنت يا نرماتسكي ، كنت تقترض . . .لا ،بل كنت تُقرضه مالا بربح باهظ ؛ وأما أنت أيها الطبيب . . .

وتوقفتْ ، ثم قالت :

– أنا حقاً لا أعلم ماذا كنت تفعل . . .

أجابها لوشين :

– كنت أنصح للملكة وأنا طبيب القصر ، ألا تقيم حفلات للرقص ، إذا كان مزاجها لا يسمح لها بتسلية الضيوف . . .

– ربما كنت مصيبا . وأنت يا كونت ؟ . . .

– وأنا ؟ . . .

أعادها مالفسكي بابتسامته الخبيثة .

– كنت تعطيه بعض الحلوى المسممة .

وتغير وجه مالفسكي قليلا ، وبدا لحظة كأنه وجه يهودي ، لكنه سرعان ما ابتسم . ومضت زينايدا تقول :

أما أنت يا فولدمار . . . لكن ، كفى ، كفى ، هيا بنا نلعب .

فقال مالفسكي بخبث :

– إن السيد فولدمار – وهو وصيف الملكة– يحمل لها طرف ثوبها وهي تجري في الحديقة .

احتقن وجهي بالدم غضباً ،لكن زينايدا أسرعت ووضعت يدها على كتفي ، وقالت بصوتٍ يرتعش قليلا وهي تنهض :

– أنا لم أسمح لسعادتك قط ، أن تكون وقحاً .لهذا أطلب منك أن تغادرنا .

وأشارت إلى الباب .

تمتم مالفسكي :

– بشرفي أيتها الأميرة . . .

وبدا عليه الشحوب .

وصاح بيلفزوروف :

– إن الأميرة على حق .

ونهض هو الآخر .

فراح مالفسكي يقول :

– يالله ، لم تكن عندي أقل فكرة ، لا شيء في كلامي ،أظنه قد . . . لم أقصد إيلامك ، اغفري لي .

فصعدت زينايدا فيه بصرها ، وابتسمت في برود ، وقالت وهي تشير بذراعيها دون اكتراث :

– لتبق إذاً . . .لاحاجة بك لإغاظتي أنا والسيد فولدمار ، يلذ لك أن تلسع . . . فقد يرفه ذلك عنك .

فكرر مالفسكي :

– اغفري لي .

وكنت حينذاك ، أفكر في إشارة زينايدا وأقول لنفسي ، إن أي ملكة حقيقية ، لا تكون أعظم من زينايدا وهي تطرد أحد رعاياها المتجبرين .

واصلنا لعبة الغرامات وقتاً قصيراً بعد هذا النزاع الطفيف .شعر كل منا بقليل من الضيق ، لم يبعثه هذا النزاع ، بقدر ما بعثه شعور آخر

مبهم . لكنه شعور ممض . ولم يفصح أحد عن هذا الشعور ، لكن كل واحد منا ، أحسه في نفسه ، ولمسه في جاره . وأنشدنا ميدانوف أشعاره ، وأثنى عليها مالفسكي بحرارة زائدة . فهمس لوشين في أذني :

– إنه الآن يريد أن يرينا كم هو كريم!

وسرعان ما تفرقنا . فقد بدت زينايدا مستغرقةً في الذكريات ، وأرسلت الأميرة العجوز تنبئنا أن بها صداعاً ، وبدأ نرماتسكي يشكو ما يعانيه من ألم المفاصل .

لبثت وقتاً طويلاً لا أستطيع النوم . لقد أثرت فيَّ قصة زينايدا . تساءلت :

– أيمكن أن يكون فيها تلميح ؟ وإلى منْ وإلى أي أمر كانت تلمح ؟ وإذا كان هناك شيء تلمح إليه حقاً . . . فكيف يستطيع المرء أن يجزم ؟ ثم همست وأنا أقلب وجهي من خد ملتهب إلى خد ملتهب مثله :

– لا ، لا ، هذا مستحيل .

. . . لكني تذكرت تعبير وجه زينايدا وهي تقص قصتها... وتذكرت الصيحة التي ندت عن لوشين في حدائق نسكتشني ، والتغيير المفاجئ الذي طرأ على سلوكها نحوي ، واستغرقتني الظنون . "من هو ؟" كأن هاتين الكلمتين ، تبدوان أمام عينيَّ مطبوعتين على صفحة الظلام ، وبدت سحابة مظلمة نضاحة بالشر تحوم من فوقي ، وأحسست بثقلها ، وانتظرتها حتى تنقشع . لقد صرت آلف أشياء كثيرة في المدة الأخيرة ، وأفدت علما كثيرا مما رأيته في مسكن آل زاسيكن ؛ لم تعد تروعني أساليبهم الملتوية ، وبقايا شموعهم ، وسكاكينهم وأشواكهم المكسرة ، وخادمهم فونيفاتي الفظ ، وخادماتهم القبيحات ، وأخلاق الأميرة العجوز– لم تعد تروعني كل أساليبهم الغريبة في الحياة . . . لكن الذي لم أستطع أن آلفه ، هو ذلك الشيء المبهم الذي أدركته الآن في زينايدا . . . قالت عنها أمي يوما من الأيام "مغامرة!" ، أمغامرة هي – معبودتي ، إلهتي تلك ؟

وخزتني هذه الكلمة ، فحاولت أن أهرب منها في وسادتي ، وكنت حانقاً- ولكن ، أي شيء كانت تأباه نفسي ، وأي شيء كنت أضن به ، لو قدر لي أن أكون ذلك الفتى السعيد عند النافورة! . . . كان دمي يلتهب ويغلي في عروقي . فكرت-الحديقة . . . النافورة . . . إنني داخل إلى الحديقة .

وارتديت ثيابي مسرعا ، وتسللت إلى المنزل . كان الليل مظلماً ، والأشجار لا تكاد تهمس ، والسماء تنسم هواء ناعماً قارساً ، ورائحة الشمر تسري من حديقة المطبخ . ذرعت الدروب جميعاً ،كان لخطواتي وقع خفيف يبعث فيَّ الاضطراب والجرأة معاً ،وقفت مكاني ، وانتظرت ، وسمعت قلبي يدق سريعاً عالياً .وأخيراً تقدمت إلى السياج ، وانحنيت على الحاجز الرفيع .وحدث فجأة -أو هكذا خُيِّل إلي- أن ومضَ شخص امرأة على بضع خطوات مني . . . فأثبتُّ عينيّ بلهفة في الظلام ، واحتبست أنفاسي . ما هذا ؟ هل أسمع خُطا ، أم كان قلبي يدق من جديد ؟ "من هنا ؟" قلت متلعثماً وصوتي لا يكاد يبين . . . ما هذا مرة أخرى ، ضحكة مكتومة . . . أم حفيف بين الأوراق . . . أم تلك زفرة في أذني ؟ أحسست بالخوف . . .وأعدت بصوت أرق "من هذا ؟" ، وهبت الريح لحظة ؛ ومضت عبر السماء شعلة من نار . كانت نجماً يهوي . أردت أن أنادي "زينايدا ؟" لكن الكلمة ماتت على شفتيَّ . وفجأة أصبح كل شيء حولي هادئاً عميق الهدوء ، هدوء منتصف الليل . . . حتى الجنادب انقطع زفيفها بين الأشجار- ولم تكن إلا نافذة تصر في مكان ما . وقفت ووقفت ، ثم عدت أدراجي إلى حجرتي ، إلى سريري البارد . شعرت بإحساس غريب ، كنت كأنما ذهبت إلى موعد ، وتركت وحيداً ، ولمست عن قرب سعادة غيري .

١٧

وفي اليوم التـالي ، لم أظفر من زينايدا بغير لمحة عابرة : كانت هي والأميرة العجوز تركبان في عربة إلى مكان ما . لكني رأيت لوشين الذي لم يكد يتفضل عليَّ بتحيته ، وكذلك رأيت مالفسكي . كشـرَ لي الكَونت الشاب ، ثم بدأ بتلطف يحدثني . كان الشخص الوحيد بين زوار المسكن جميعاً ، الذي استطاع أن يشق لنفسه طريقاً إلى منزلنا ، ولقد فاز برضا والدتي . أما أبي فلم يعجب به ، وكان يعامله بلطف يكاد يكون إهانةً.

بدأ مالفسكي يقول :

– آه . أيها السيد الوصيف ، يسرني لقاؤك . ماذا تعمل ملكتك الجميلة ؟

وفي تلك اللحظة ، بدا لي وجهه الغض الوسيم بغيضاً إلى نفسي ، نظر إليَّ كأنما يلهو بي في احتقار ، فلم أجبه بكلمة واحدة .

مضى يقول :

– ألا تزال غاضباً ؟ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك . لم أكن أنا الذي دعوتك وصيفاً كما تعلم ، ثم إن الوصفاء يلازمون ملكاتهم على الخصوص . لكن دعني فأقول لك ، إنك تؤدي واجباتك على نحو سيئ جدا .

– وكيف ذلك ؟

– ينبغي للوصفاء ألا يفارقوا ملكاتهم ، وأن يعرفوا كل ما يعملن ، وأن يراقبوهن . . .

وأضاف بصوت خفيض :

– نهارا وليلا .

– ماذا تقصد ؟

– ماذا أقصد ؟ أظنُّني أعبّر عن رأيي بجلاء تام . يجب أن يراقبوهن ليل نهار . لكن النهار لايهم كثيراً ، إنه مبصر ، والناس فيه يروحون ويغدون ؛ أما في الليل فحاذر من البلاء . إني أنصحك ألا تنام الليالي ، وأن ترقب ، ترقب بكل ما أوتيت من همة وعزم . أنت تذكر قولها "في الحديقة ، وفي الليل ، وعند النافورة" ، هناك إذاً تجب المراقبة . إنك ستشكرني .

وضحك مالفسكي ، وأولاني ظهره . بدا كأنه لا يهتم كثيراً بما قاله لي ، لقد اشتهر بالألغاز ، وعرف بقدرته على خداع الناس بمساخره التي نماها فيه ذلك الزيف الذي لا يكاد يعيه ، والذي انغمس فيه طبعه كله . . . كان همه أن يغيظني . لكن كل كلمة لفظها ، كانت سماً جرى في عروقي . اندفع الدم إلى رأسي ، وقلت لنفسي :

– آه ، إذاً فالأمر كذلك! حسن! كان هناك إذاً ما يجعلني أشعر بأني أُدفعُ إلى الحديقة! هذا لن يكون!

وصحت صيحة عالية ، وصككت صدري بقبضة يدي ، وإن لم أكن أعلم بالدقة ما هو الأمر الذي لن يكون . فكرت :

– سواء أكان مالفسكي نفسه هو الذي يذهب إلى الحديقة (ربما كان يفاخر بهذا ، فقد كانت فيه وقاحة كفيلة بذلك) أو كان ثمة شخص غيره (وكان سياج حديقتنا وطيئاً جدا ، فلا يصعب عليَّ تخطيه) فعلى أي حال ، إذا وقع أي إنسان بين يديَّ ، كان في ذلك نكبته! أنا لا أنصح لأحد أن يلقاني! وسأثبت للدنيا جميعاً ، ولها ، تلك الخائنة (ولقد استعملت فعلا لفظة "الخائنة") أني أستطيع الانتقام!

عدت إلى حجرتي ، وأخذت من مكتبي سكينا إنجليزية كنت قد اشتريتها أخيراً ، وتحسست طرفها الحاد ، وعقدت جبهتي في عزم بارد مركز ، ودفعت بالسكين إلى جيبي ، وكأن القيام بهذا كله لم يكن أمرا شاذاً لديَّ ، ولم يكن جديداً عليَّ . وخفق قلبي غضباً ، وأحسست به ثقيلاً كالحجر . ولبثت اليوم بطوله مقطب الجبين ، مزموم الشفتين ، أروح وأغدو ، وأغدو وأروح ، قابضاً بيدي في جيبي على السكين التي أدفأتها قبضتي ، وأنا أعد نفسي لأمر رهيب . وشغلتني هذه المشاعر الجديدة المجهولة ، بل وجدت فيها السرور ، لم أعد أفكر في زينايدا نفسها . كان شبح ألكو الغجري الصغير يتبعني دائما ويقول :

- إلى أين أنت ذاهب أيها الفتى الوسيم ؟ أرقد حيث أنت . . . ثم يقول :

- إن جسمك كله ملوث بالدم . . . أوه ، ماذا فعلت . . . لاشيء! وفي بسمة قاسية رددت :

- لا شيء!

لم يكن أبي في المنزل ، لكن أمي التي كانت من زمن مضى ، في حال من الغيظ المكظوم ، أدركت ما فيَّ من الكآبة ، وما بدا عليَّ من سيماء البطولة ، وقالت لي على العشاء :

- لِمَ تعبسُ كفأر في قصعة دقيق ؟

وأجبتها ببسمة متواضعة ، وقلت لنفسي :

- آه ، لو كانوا يعلمون!

ودقت الساعة الحادية عشرة ، فذهبت إلى حجرتي ، ولكني لم أخلع ملابسي ؛ انتظرت الليل حتى ينتصف ، وأخيرا دقت الساعة فتمتمت بين أسناني :

- لقد آن الآوان!

وزررت ملابسي إلى حلقي ، بل شمرت عن ذراعيَّ ، ومضيت إلى

الحديقة . كنت قد عينت المكان الذي أرقب منه . كانت شجرة من أشجار الصنوبر ، تنفرد عند نهاية الحديقة ،في المكان الذي يتصل فيه الجدار المشترك ، بالسياج الذي يفصل بيننا وبين آل زاسيكن . فإذا وقفت تحت غصونها الكثيفة القريبة من الأرض ، استطعت أن أرى بجلاء ما يدور حولي ، بقدر ما تسمح بذلك ظلمة الليل . وامتد بالقرب منها درب ملتو كان يخيل إليَّ دائما أنه محفوف بالأسرار ، وكان يلتف كالثعبان تحت السياج ، ويؤدي إلى عريشة من أشجار السنط المتكاثفة ،وكان في هذا الموضع من السياج آثار تدل على أن أحدا كان يرتقيه . اتخذت طريقي إلى شجرة الصنوبر ، وأسندت ظهري إلى جذعها ، وبدأت أرقب .

كان الليل هادئا هدوء الليلة السابقة ، ولكن السماء كانت أقل سحباً ، وأشباح الشجيرات والأزهار الطويلة كانت أوضح للرؤية . كانت اللحظات الأولى من التوقع ، ممضة ، بل كانت رهيبة . كنت قد وطنت النفس على كل شيء ، لكني حاورت نفسي في طريقة العمل . هل أقصف كالرعد :

– أين تذهب ؟ قف! اظهر– وإلا فالموت لك!

أم أكتفي بالطعن . . . بدا لي كل صوت ، وكل همسة وحفيف ، شاذا ينذر بالسوء . . . أخذت أهبتي . . .وانحنيت إلى الأمام . . .لكن مضى نصف ساعة .

ومضت ساعة ، وإذا بدمي بدأ يهدأ ويبرد ، وبدأت أشعر بأني أفعل كل هذا عبثاً ، وبأني لم أكن إلا سخيفاً ،وبأن مالفسكي كان يهزأ بي . تركت مكمني ، وطفت الحديقة كلها . لم تكن هناك أدنى نأمة تصل إلى السمع ، كأن ذلك كان لتعنيفي .حتى كلبنا كان نائماً ، وهو مكوم كالكرة عند البوابة . صعدت أطلال المستنبت ، ورأيت الريف المنبسط بعيداً أمامي ، وتذكرت لقائي وزينايدا ، وأسلمت نفسي للأحلام . . .

أخذت . . .خيل إليَّ أن باباً يفتح ، ثم صوتاً خافتاً لغصن يتحطم . هبطت الأطلال في قفزتين ، ولبثت واقفا وقد شملني الذهول . كان في الحديقة وقع واضح لخطا تمشي سريعةً خفيفةً لكن في حذرٍ .كانت الخطا تقترب مني . ثار في نفسي .

- ها هو ذا . . . ها هو ذا ، أخيرا .

ونزعت السكين من جيبي بسرعة عصبية ، وفتحتها بسرعة عصبية أيضا . كانت تتراقص أمام عينيَّ ومضات من النور الأحمر ، ووقف شعري على رأسي ، خوفاً وغضباً . . . كانت الخطا تتقدم ؛ انحنيت- ومددت رأسي إلى الأمام لألقاه . . . وإذا برجل يبدو . . . ياإلهي! لقد كان أبي!

عرفته لتوي ، ولو أنه كان متلفعاً بدثار قاتم ، وقبعته مسدلة على وجهه . مرَّ بي على أطراف أصابعه ، ولم يلحظني ، وإن لم يكن هناك شيء يحجبني : لكني كنت مكوماً متقلصاً ،حتى خلتني أكاد أستوي بالأرض . وفجأة ، ارتد "عطيل" المتأهب للقتل ، صبياً من تلاميذ المدارس . . . بهرني ظهور أبي المفاجئ فلم أتبين للوهلة الأولى من أين أتى وفي أي ناحية غاب عن عيني . تحاملت حتى نهضت ، وقلت لنفسي :"لِمَ كان أبي يجول في الحديقة في الليل ؟" وعاد كل شيء إلى هدوئه . وأسقطتُ السكين بين الحشائش من رعبي ، لكني لم أحاول أن أبحث عنها . كنت شديد الخجل من نفسي ،وسرعان ما ارتد إليَّ هدوئي .ومهما يكن ، فقد ذهبت إلى مقعدي تحت الشجرة العتيقة وأنا في طريقي إلى منزلي ، وتطلعت إلى نافذة زينايدا . كان في النافذة ألواح زجاجية صغيرة محدبة قليلا، تضيئها زرقة قاتمة من النور الضعيف الذي ألقته عليها سماء الليل . وفجأة بدأ لونها يتغير . . فرأيت - رأيت بدقة- ستارة بيضاء ترخى خلفها برفق وحذر ، وتسدل أمام إطار النافذة ، وتظل كما هي .

وحين ألقيت نفسي مرة أخرى في حجرتي ، قلت بصوت عال وأنا لا أكاد أعي ما أقول :

- لِمَ كان هذا ؟ أحلم هو-أم مصادفة ، أم . . .

وبدت لي تلك الفروض التي اندفعت فجأة إلى رأسي ، جديدة غريبة عليَّ ، فلم أجرؤ على تتبعها .

١٨

نهضت في الصباح برأس مصدع . وتلاشى الانفعال الذي كنت أحمله في اليوم الماضي . وحل محله إحساس موحش بالفراغ ، ونوع من الحزن لم أعرفه من قبل . كأن شيئا قد مات في نفسي .

قال لي لوشين حين لقيني :

– لِمَ تبدو كأرنب طار منه نصف عقله ؟

وفي الغداء ، استرقت النظر إلى أبي أولا ، ثم إلى أمي : كان أبي رزيناً كعادته ، وكانت هي كعهدها مهتاجة في خفاء ؛ انتظرت لعل أبي يبدي لي بعض التودد ، كما كان أحيانا يفعل . . .لكنه لم يتفضل عليَّ بتحيته اليومية الباردة . قلت لنفسي متعجباً :

– هل انفضّ الأمر كله لزينايدا ؟ . . .كلشيء يستوي على أي حال . . . فقد انتهى كل شيء بيننا .

وذهبت لأراها ، لكني لم أقل لها شيئا ، والحق أني لو أردت ، لما وجدت إلى ذلك سبيلاً . كان ابن الأميرة العجوز ، وهو تلميذ في الثانية عشرة ، من تلاميذ مدرسة حربية ، قد قدم من بطرسبرج ليقضي إجازته . قدمت زينايدا إليَّ أخاها لتوها ، وقالت :

– يا عزيزي فولوديا (وكانت هذه أول مرة تناديني فيها بهذا الاسم) ، هذا رفيق لك . إن اسمه فولوديا أيضا . أرجوك أن تحبه . إنه لا

يزال خجولا لكنه طيب القلب . أره حدائق نسكتشني ، وقم معه ببعض الجولات . واجعله في رعايتك . إنك فاعل هذا ، أليس كذلك ؟ أنت طيب جداً ، طيب للغاية!

وربتت على كتفي ،متلطفة ،بكلتا يديها ،فتملكتني الحيرة إذ جعلتني حضرة هذا التلميذ صبياً مثله . ونظرت إلى التلميذ في صمت ، فحدق فيَّ هو الآخر صامتاً .وضحكت زينايدا ، ودفعت كلا منا إلى الآخر وقالت :

– تعانقا ، أيها الولدان! وتعانقنا . سألت التلميذ .

– أتحب أن أريك الحديقة ؟

فأجابني بصوت أبح معهود عند التلاميذ :

– إذا تكرمت .

وضحكت زينايدا مرة أخرى . . .وأتيح لي أن ألاحظ وجهها وقد كساه لون رائع لم أعهد مثله من قبل . مضيت والتلميذ . كانت في حديقتنا أرجوحة عتيقة الطراز ، فأجلسته على المقعد الخشبي الضيق ، وبدأت أرجحه . جلس منتصباً في حلته الجديدة الصغيرة ، المصنوعة من القماش الغليظ ، بجدائلها المذهبة ، وظل قابضاً بشدة على الحبل . وقلت له :

– من الأفضل أن تفك ياقتك .

فقال :

– حسناً– لقد اعتدناها .

ثم كشف عن رقبته . لقد كان يشبه أخته . كانت عيناه بخاصة تذكرانني بعينيها .وسرَّني التلطف معه ، وفي الوقت نفسه حزّ في قلبي أسى ممض .

قلت لنفسي :

– لا شك في أني الآن طفل ، لكني بالأمس . . .

- وتذكرت المكان الذي سقطت فيه السكين في الليلة السابقة . . . فبحثت عنه . وسألني التلميذ عن أمره ، والتقط ساقا غليظة من العشب ، واقتطع منها قصبة- وبدأ يصفر . وصفر "عطيل" أيضا لكن ؛ كم بكى في المساء عطيل هذا ، بين ذراعي زينايدا ، حين لقيته في ركن من الحديقة ، وسألته لِمَ كان مبتئساً هكذا . وفاضت دموعي غزيرة حتى ارتاعت . أخذت تسألني وتعيد السؤال :

- ماذا أصابك ؟-ماذا بك يا فولوديا ؟

فلما وجدتني لا أجيب ، ولا أكف عن البكاء ، كادت تقبلني في وجنتي الندية ، لكني تحولت عنها . وهمست خلال عبراتي :

- إني أعرف الأمر كله . لِمَ كنت تلعبين بي ؟ أي حاجة بك إلى حبي ؟

فقالت زينايدا :

- أنا الملومة يا فولوديا . . .

وأضافت وهي تعصر يديها :

- أنا الملومة حقاً . . . كم فيَّ من سوء وشر وإثم! . . . لكني الآن لا ألعب بك . إني أحبك . ولن يخالجك شك ، لِمَ وكيف . . . لكن ما الذي تعرفه ؟

ما الذي كنت أستطيع قوله لها ؟ وقفتْ تواجهني ، وتنظر إليَّ ؛ وملكتني من رأسي إلى قدميَّ حين نظرت إليَّ . . . وبعد ربع ساعة كنا نتسابق ، أنا والتلميذ وزينايدا . لم أكن أبكي ، بل كنت أضحك ، وإن انحدرت دمعة أو دمعتان من جفوني المتورمة أثناء ضحكي . اتخذت شريط زينايدا رباطاً حول رقبتي ، وكنت أصيح مسروراً كلما استطعت أن أمسكها من حول خصرها . وفعلت زينايدا معي كل ما بدا لها .

١٩

لو اضطررت أن أصف ما مر بي في الأسبوع الذي تلا حملتي الفاشلة في منتصف الليل ، لشعرت بحرج شديد . كان وقتاً غريباً محموماً ، كان نوعاً من الفوضى ، اختلطت فيه كالزوبعة ، أشد ما يتضارب من المشاعر والأفكار والشكوك والآمال والأفراح والآلام . كنت أخاف أن أنظر في نفسي ، إن أمكن لصبي في السادسة عشرة أن ينظر في نفسه . كنت أتعجّل الحياة في كل يوم حتى المساء ، وكنت أنام الليل . . . واتنني خفة القلب إبّان الصبا . لم أشأ أن أعرف هل كنت محبوباً ، ولم أشأ أن أصارح نفسي بأني لم أكن محبوبا . وتجنبتُ أبي ، أما زينايدا فلم أستطع تجنبها . . . كنت في حضرتها أحترق كأني في نار . . . لكني لم أكن أهتم لأمر النار التي أحترق فيها ، وأذوب– بل قصاراي أن أجد حلاوة في أن أحترق ، وأذوب . لقد استسلمت لكل ما يمر بي من مشاعر ، وخدعت نفسي ، هارباً من ذكرياتي ، مغمضاً عينيّ عن هواجسي ، وما كان لهذا الضعف أن يستمر طويلا على كل حال . . . وإذا بصاعقة تحد فجأة من ضعفي ، وتقذف بي إلى سبيل جديد .

كنت يوما من الأيام ، عائداً للغداء من جولة طويلة ، فعلمت – وقد تملكتني الدهشة– أني سأتناول غدائي وحيداً ، وأن أبي قد رحل ، وأمي معتلة ولا تريد أن تطعم شيئاً ، وقد حبست نفسها في حجرة نومها .

حدست من وجوه الخدم ، أن شيئا شاذاً قد حدث . . . لم أجرؤ على

استجوابهم ، لكن كانت لي صداقة مع الخادم الصغير فيليب ، الذي كان مغرماً بالشعر ، وعازفاً على القيثار . تحدثت إليه ، فعلمت منه أن نزاعا رهيباً حدث بين أمي وأبي (كان الحديث كله يصل إلى حجرة الخادمات ؛ وكان أغلبه يدور بالفرنسية ، لكن الوصيفة ماشا كانت قد عاشت خمس سنوات مع عائلة باريسية ،ففهمت الحديث كله) ؛ علمت أن أمي قد اتهمت أبي بالخيانة ، وبأنه على صلة وثيقة بالفتاة الصغيرة في المسكن المجاور ، وعلمت أن أبي قد دافع عن نفسه أول الأمر ،لكنه أخيراً تملكه الغضب ،فقال لها بدوره كلاماً قاسياً "يدور حول سنها" مما دفعها للبكاء ، وأشارت هي أيضا إلى قرض يبدو أن أبي أقرضه للأميرة العجوز ، وسبَّتها كما سبت الأميرة الصغيرة كذلك ، فتوعدها أبي . واستمر فيليب يقول :

– وحدث كل هذا البلاء من خطاب مجهول ، ولا يعلم أحد من كتبه ؛ وإلا ، لم يكن لهذا الأمر أن ينكشف .

– لكن ، هل يستند الأمر حقا إلى أساس ؟

قلت هذا في عسر شديد ، وقد بردت يداي وقدماي ، وسرى نوع من الرعدة في أعماق كياني .

غمز فيليب غمزة ذات معنى ، وقال :

– إن له أساساً .فهذه الأمور لا تخفى . ومع أن والدك كان حريصاً هذه المرة– لكن ، أنت ترى أنه كان – مثلا– يستأجر عربة أو ما شابه ذلك . . . ولم يكن يخرج دون خدم .

صرفت فيليب ، وارتميت على فراشي . لم أنتحب ، ولم أستسلم لليأس ، ولم أسأل نفسي ، متى وكيف حدث هذا ، ولم أعجب لأني لم أحدس ذلك من قبل ، بل من زمن طويل . ولم أنحُ باللائمة على أبي . . . كان ما تعلمته يفوق احتمالي ؛ لقد انتهى كل شيء . . . أذهلتني هذه الفكرة المفاجئة . لقد قُطفتْ بجفاء تلك البراعمُ الجميلة التي تفتحت في قلبي ، وارتمتْ حولي ، منثورةً على الأرض تدوسها الأقدام .

٣٠

في اليوم التالي ، أعلنت أمي رغبتها في العودة إلى المدينة . دخل أبي في الصباح إلى حجرة نومها ، ولبث معها وقتاً طويلاً على انفراد . لم يسمع أحد ماذا قال لها ؛ لكن أمي كفت عن البكاء ؛ استعادت هدوءها ، وطلبت طعاماً ، لكنها لم تبدُ خارج غرفتها ، ولم تغير خطتها .

أذكر أني تجولت اليوم بطوله ، لكني لم أدخل الحديقة ، ولم ألقِ نظرة واحدة إلى المسكن ، وفي المساء ، شهدت واقعة تبعث على الدهشة : أخذ أبي الكونت مالفسكي من ذراعه ، ومشى به من حجرة الطعام إلى البهو ، وقال له في برود كالثلج ، على مشهد من أحد الخدم : - منذ أيام ، عرفتَ سعادتك باب منزلنا ، والآن ، لا أريد أن أتفاهم معك في أي شيء . لكني أتشرف بإعلانك أنك إذا زرتني مرة أخرى ، قذفت بك من النافذة . إني لا أحب خطك .

فانحنى الكونت ، وعضّ على شفتيه ، وتراجع إلى الوراء ، وغاب عن النظر .

بدأنا نستعد للرحيل إلى المدينة ، إلى شارع أربتي ، حيث كان لنا منزل هناك ، ولعل أبي نفسه لم يعد يهتم بالبقاء في المنزل الريفي ؛ لكن من الواضح أنه نجح في إقناع أمي بألا تثير فضيحة . وتم كل شيء في هدوء ، وبلا عجلة ؛ بل إن أمي بعثت بتحياتها للأميرة العجوز ، وأبدت لها أسفها إذ لم تتمكن من زيارتها قبل الرحيل .

كنت أجـول كـمن أصـابه مس ، ولـم أطلب سـوى شـيء واحـد ، أن ينجلي الأمـر كله في أقـرب وقت . كـانت هناك فكـرة واحـدة لم أسـتطع الخـلاص منها : كيف تقدم على هذا ، وهي بعدُ فتاة صغيرة ، وأميرة أيضا ، وتعلم أن أبي لم يكن رجلا طليقاً ، ولديها فرصة للزواج من بيلفزوروف مثلا ؛ أي شيء كانت تأمل فيه ؟ كيف لم تخشَ أن تحطم مستقبلها كله ؟

قلت لنفسي :

– أجل! هذا هو الحب . . . هذه هي العاطفة . . . هذا هو التفاني في الحب . . .

وتذكـرت كلمـات لوشين "لذيذ أن يضحي المرء بنفسـه في سـبيل الآخرين" وقدر لي أن ألمح شيئا أبيض في إحدى نوافذ المسكن . . . فقلت لنفسي :

– أيمكن أن يكون هذا وجه زينايدا ؟

أجل . لقد كان حقاً وجهها . لم أستطع أن أكبح نفسي . لم أسـتطع أن أفارقها دون أن أحييها تحية الوداع الأخيرة . وانتـهزت لحظـة مواتيـة، ودخلت المسكن .

قابلتني الأميرة العجوز في حجرة الجلوس ، بتحياتها المعهودة في غير اعتناء أو اكتراث . قالت وهي تنشقُ:

– كيف يرحل ذووك أيها الرجل الكريم بمثل هذه العجلة ؟

نظرت إليـهـا ، وانزاح عن قلبي عبء ثقـيل . كـانت تـعذبـني كلمـة "القـرض" التي قالـهـا فـيليب – إن الأمـيـرة لا ترتاب في شيء . . . أو هذا على الأقل ما ظننته حينذاك . وجاءت زينايدا من الحجرة المجاورة ، شاحبة ترتـدي السـواد ، وشـعـرها مـرسل مـشـعـث . أخـذتني من يدي دون أن تنبس ، ومضت بي .

بدأت تقول :

– لقد سـمعت صـوتك فجئت لتوي . أيسـهل عليك فراقنا هكذا ، أيها الولد الخبيث ؟

أجبت :

- أتيت لأودعك أيتها الأميرة ، وقد يكون هذا هو الوداع الأخير . لعلك سمعت بأننا راحلون .

نظرت إليَّ زينايدا نظرة فاحصة :

- أجل ، لقد سمعت بذلك ، أشكرك إذ حضرت . . كدت أظن أني لن أراك مرة أخرى ، لاتذكرني بسوء . . إني آلمتك أحيانا ، ولكني برغم ذلك لم أكن كما ظننت .

والتفتت عني ، وانحنت فوق النافذة .

- الحق أني لست كذلك . أنا أعلم أنك تظن بي سوءاً.

- أنا ؟

كررتها متجهماً حزيناً ، وقلبي يخفق في صدري ، كما كان يخفق قديماً ، وأنا متأثر بفتنتها الطاغية التي لا تصفها الكلمات :

- أنا ؟ صدقيني يا زينايدا ألكسندروفنا ، إني أحبك وأعبدك إلى آخر أيام حياتي ، مهما فعلت ، ومهما عذبتني .

فاتجهت إليَّ بحركة مسرعة ، وبسطت ذراعيها ، وحضنت رأسي ، وقبلتني قبلة حارة ملتهبة . ويعلم الله عمن كانت تبحث قبلة الوداع الطويلة هذه ، لكني ذقت حلاوتها مشغوفاً . كنت أعلم أنها لن تعود . . .

وظللت أقول : "الوداع ، الوداع ." . . .

انثنتْ عني ومضتْ ، ومضيتُ كذلك . ولا يمكنني أن أصف الانفعال الذي تملكني حين مضيت . كنت أود ألا يعاودني مرة أخرى ، على أني لو لم أجربه لعددت نفسي شقياً.

عدنا إلى المدينة . لم أنفض الماضي عني بسرعة ، ولم أشرع في العمل على عجل ، لقد بدأ جرحي يلتئم في بطء ، لكني لم أكن أكره أبي . بل إنه على النقيض من ذلك ، ارتفع شأنا في نظري . . .وليفسر علماء النفس هذه المتناقضات كما يشتهون .

كنت يوما أسير في أحد الطرق ، ولشد ما كانت فرحتي حين لقيت لوشين . كنت أحبه لشخصيته الصريحة غير المتكلفة ، زد على هذا ، أنه كان عزيزاً عليَّ لما كان يحييه من ذكريات في نفسي . اندفعت إليه،

فقال لي وهو يقطب حاجبيه :

– أها ، إذاً ،فهأنتذا أيها الشاب . دعني أنظر إليك نظرة . ما زلت أصفر كما كنت دائماً ، لكن ذلك الهراء فارق عينيك . إنك تبدو رجلاً لا جرواً مدللاً . هذا حسن . وماذا تفعل ؟ أتعمل ؟

أرسلت زفرة . لم أكن أريد أن أكذب ، بينما كان يخجلني أن أصدق . مضى لوشين يقول :

– حسن . لا عليك ، ولا تخجل . إن الشيء العظيم هو أن تحيا حياة طبيعية ، ولا تكون عبداً لأهوائك . وإلا فماذا تكون ؟ أينما تقذف بك الأمواج ، فلن تجد خيراً . إن الرجل يجب عليه أن يقف على قدميه هو ، ولو لم يجد غير صخرة يقف عليها . آه ، إني أسعل . . . وبيلفزوروف – أسمعت عنه شيئاً؟

– كلا ، ما الأمر ؟

– لقد اختفى ؟ وليست هناك أخبار عنه . يقال إنه رحل إلى القوقاز . في ذلك عبرة لك أيها الشاب . كل ذلك ، لأنه لم يعرف اللحظة التي يرحل فيها ، ويتخلص من الحبالة . يبدو أنك أحسنت التخلص . فاذكر ألا تقع في الشرك نفسه مرة أخرى . الوداع .

قلت لنفسي :

– لن أقع فيه ، لن أراها بعد ذلك أبداً.

لكن قدر لي أن أرى زينايدا مرة أخرى .

٢١

اعتاد أبي كل يوم أن يخرج على صهوة جواد . كانت له فرسٍ إنجليزية رائعة ،شهباء كستنائية ،لها عنق طويل أهيف ، وقوائم طويلة . كانت حيواناً شريراً لا يدركه تعب . وكان اسمها "الكهربا" . لم يكن أحد يستطيع ركوبها غير أبي . جاء إليَّ يوماً معتدل المزاج ، وهي حال لم أرها فيه منذ زمن طويل ، كان يتأهب للركوب ، وقد وضع مهمازيه على قدميه .فأخذت أتوسل إليه ليصطحبني معه .

أجاب والدي :

– خير لنا أن نلعب "النطة" . لن تستطيع أن تجاريني بمهرك .

– بلى ، سأجاريك . وسأضع مهمازيَّ أيضاً .

– حسن . هيا بنا .

وركبنا . كان لي جواد أسود كث الشعر ، قوي مرح . الحق أنه اضطر للركض بأسرع ما يستطيع ، حين كانت الكهربا تركض خبباً ، لكني مع هذا لم أتخلف . لم أر في حياتي أحدا يركب كأبي . كانت له ركبة لطيفة مريحة غير عابئة ،حتى يخيل إليك أن الجواد من تحته يدرك ذلك ويزهو براكبه .اجتزنا الطرق جميعاً ، ووصلنا "ساحة العذارى" وقفزنا فوق كثير من الحواجز (كنت أول الأمر

أخاف أن أقفز ، لكن أبي كان يحتقر الجبناء ، فسرعان ما أصبحت لا أشعر بالخوف) ، وعبرنا نهر موسكفا مرتين ، وأحسست بأننا كنا في طريقنا إلى منزلنا ، وبخاصة حين لاحظ أبي من تلقاء نفسه ، أن حصاني أدركه التعب ، وهو ينثني بعيداً عني فجأة عند مخاضة القرم ، وأخذ يركض وضفة النهر .سرت وراءه . فلما بلغ كومة عالية من الخشب القديم ، انزلج مسرعاً من فوق الكهربا ، وأمرني أن أترجل ، وأنتظره هناك عند كومة الخشب ، مسلماً إليّ زمام فرسه ؛ وعرج في شارع صغير ، وغاب عن نظري . أخذت أذرع ضفة النهر جيئة وذهوباً ، وأنا أقود الخيل ، وأنهر الكهربا ، التي ظلت تجذب رأسها وتهزه ، وتنخر وتصهل وهي تسير ؛فلما وقفتْ لم تكف عن ضرب الأرض بقدمها ، وصهلت وعضت حصاني في رقبته ، والحق أنها فعلت كل ما يفعله الجواد الأصيل المدلل .

هب من النهر ضباب رطب يبعث الضيق . وبدأ يتساقط رذاذ خفيف ، ويترك بقعاً صغيرة قاتمة على كومة الخشب الرمادية البليدة ، التي لبثتُ أروح أمامها وأغدو ، وضجرت الآن ضجراً ذريعاً .

أحسست بضيق فظيع ، ولم يعد أبي بعد . واقترب مني حارس من الحراس ، رجل فنلندي ، رمادي كله مثل كومة الخشب ، ومعه رمح ، وعلى رأسه خوذة ضخمة عتيقة الطراز ، تشبه الأصيص (ولو تدبرت الأمر، لعجبت كيف يأتي حارس أيا كان إلى ضفاف نهر موسكفا!) ، والتفت إليّ بوجه مغضن كوجه امرأة عجوز ، وقال :

– ماذا تفعل بالخيل هنا ، أيها السيد الصغير ؟ دعني أمسكهما .

لم أجب .فسألني شيئاً من الطباق . وأردت أن أتخلص منه (وكنت نافد الصبر مغتاظا أيضا) فخطوت بضع خطوات في الاتجاه الذي غاب فيه أبي ، ثم ذرعت الشارع الصغير إلى آخره ، ودرت عند ناصيته، ووقفت . وفي هذا الشارع ، على أربعين خطوة مني ، أمام نافذة مفتوحة في

منزل خشبي صغير ، كان أبي واقفا وظهره إليّ .كان منحنيا إلى الأمام على قاعدة النافذة ، بينما جلست في المنزل امرأة تلبس السواد ، تكاد تخفيها إحدى الستائر ، وتتحدث إلى أبي .

كانت هذه المرأة زينايدا .

تحجرت . وأعترف بأني ما توقعت هذا قط .كان الهرب أول ما خالجني . قلت لنفسي :

– سيلتفت أبي ، وإذاً فالويل لي . . .

لكن شعوراً غريباً – شعوراً أقوى من الفضول ، وأقوى من الغيرة ، بل أقوى من الخوف– أبقاني حيث كنت . فبدأت أرقب ؛ وأرهفت سمعي لأنصت . بدا لي كأن أبي يصر على أمر ما ، وكأن زينايدا لا ترضى . يخيل إليّ أني أرى وجهها الآن . . . كئيباً ،جاداً ،جميلاً ، لا يمكن وصف ما يثيره من العبادة ، والحزن ، والحب ، ونوعا من اليأس – يأسا تقصر الكلمات دونه . نطقت بألفاظ قصيرة– وهي لا ترفع بصرها ، وتبسم – تبسم في خضوع لكن دون استسلام . كانت هذه البسمة وحدها تكفيني لأعرف زينايدا ، فتاة أيامي السالفة . هز أبي كتفيه ، وسوّى قبعته على رأسه ، وكان ذلك دائما علامة نفاد صبره . . .ثم سمعت هذه الكلمات :

– يجب أن تتركي هذه. . .(Vous devez vous séparer de cette)

فاعتدلت زينايدا في جلستها ، ومدت ذراعها . . .ورأيت فجأة – رأيت بعيني رأسي ، أن المستحيل قد وقع . رفع أبي السوط فجأة ، وكان ينفض به الغبار عن سترته ، فسمعت ضربة حادة على تلك الذراع ، العارية إلى المرفق . لم أكد أتمالك نفسي من الصياح ، وارتجفت زينايدا في تلك اللحظة ، ونظرت إلى أبي دون أن تنبس بكلمة واحدة ، ورفعت ذراعها ببطء إلى شفتيها ، وقبلت موقع السوط الأحمر على ذراعها . رمى أبي السوط بعيداً ، واقتحم المنزل ، وهو يصعد الدرج مسرعاً . . .والتفتت

زينايدا وبعدت هي الأخرى عن النافذة ، وقد مدت ذراعيها ، وأحنت رأسها إلى الأرض .

نكصت على عقبي ، وقلبي يغوص من الذعر ، واستولى عليَّ نوع من الفزع الرهيب . وقطعت الشارع الضيق مسرعاً ، يكاد زمام الكهربا يفلت من يدي ، وعدت إلى ضفة النهر . لم أستطع أن أفكر في شيء بجلاء . كنت أعلم أن أبي البارد المتحفظ ، كان يصاب أحيانا بنوبات من الثورة ، لكني مع هذا ، لم أستطع أن أدرك كنه ما رأيت . . . لكني أحسست حينذاك ، أني لن أنسى – ما عشت – إيماءة زينايدا ونظرتها وبسمتها . وأحسست أن صورتها – تلك الصورة التي بدت فجأة – قد طبعت إلى الأبد في ذاكرتي . حدقت في النهر لا أرى شيئاً ، ولم ألحظ أن دموعي كانت تنهمر . كنت أقول لنفسي :

– إنها تُضرب . . . تُضرب . . . تضرب .

وسمعت صوت أبي ورائي يقول :

– مرحى! ماذا تفعل ؟ أعطني الفرس .

أعطيته الزمام بحركة آلية . فقفز على ظهر الكهربا . . . فإذا بالفرس ، وقد أصابتها رعدة البرد من الوقوف ، تشب وتقفز عشر خطوات إلى الأمام . . . لكن أبي سرعان ما أخضعها ، وشك المهمازين في جانبيها ، وضربها بقبضة يده على رقبتها . . . وتمتم :

– آه ، ليس معي سوط .

وتذكرت ما سمعته منذ قليل ، حين هوى السوط ووقع على الأرض ، وارتجفت . سألت أبي بعد سكتة قصيرة :

– أين ألقيت به ؟

– لم يجبني أبي ، ومضى يركض قدماً . وأدركته ، أحسست بأنه لا بد لي أن أرى وجهه .

تمتم من بين أسنانه :

– هل مللت من انتظاري ؟

– قليلا .

وسألته ثانياً :

– أين ضيعت سوطك ؟

– فنظر إليَّ نظرة سريعة ، وأجاب :

– لم يضع مني ، بل رميته .

وغرق في التفكير ، وأحنى رأسه . . .وحينذاك ، رأيت أول مرة ، ولعلها الأخيرة أيضا ، كيف تستطيع ملامحه العابسة أن تعبر عن الرقة واللطف وأي رقة ولطف!

وعاد إلى الركض ، فلم أستطع هذه المرة أن ألحق به . وصلت إلى المنزل بعده بربع ساعة .

– ذلك هو الحب!

قلت هذا لنفسي ، وأنا أجلس إلى مكتبي ليلا ، وقد بدأت الكتب والأوراق تظهر عليه . . .

– تلك هي العاطفة . . . ألا تفكر في الثورة ، وأن تحتمل الضرب من أي إنسان . . .حتى من أعز الأيدي! لكن يبدو أن المرء إذا أحب، استطاع أن . . . بينما أجدني . . . خيل إليَّ ...

لقد زاد عمري وهرمت في الشهر الأخير .

بدهني أن حبي ، بكل ما فيه من أفراح وآلام ، شيء تافه صبياني يستحق الرثاء ، إذا قيس بهذا الشيء الآخر الذي يقصر دونه الخيل ، هذا الشيء الذي لا أستطيع أن أدركه ، هذا الشيء الذي أخافني كأنه وجه مجهول ، جميل ، لكنه متوعد . . . وجه غامض يجاهد المرء ليستجليه في الغبش . . .

وطاف بي حلم غريب مخيف في تلك الليلة . رأيت أني دخلت حجرة وطيئة مظلمة ، وكان أبي واقفاً يحمل سوطاً في يده ، ويدق الأرض بقدمه من الغضب ، وكانت زينايدا جاثية في ركن من الحجرة ، وعلى جبينها ، لا ذراعها ، خط أحمر . . . بينما كان بيلفزوروف يطل عليهما من خلف ، وهو ملطخ بالدم ؛ فتح شفتيه البيضاوين ، وتوعد أبي حانقاً .

وبعد شهرين دخلت الجامعة ؛ وبعد ذلك بستة أشهر ، أصيب أبي بصدمة مفاجئة ومات في بطرسبرج . وكان قد رحل إليها ، وأنا وأمي

معه . وقبل وفاته بأيام قلائل ، تلقى خطاباً من موسكو ، أدى به إلى هياج شديد .

. . . ذهب إلى أمي يرجوها في شيء . وقيل لي ، إنه بكى حقا - هو- والدي! وفي صباح اليوم الذي أصيب فيه ، كان قد بدأ يكتب إليَّ خطابا بالفرنسية . قال :

" يا بني ، إياك وحب المرأة ، إياك وتلك السعادة ، ذلك السم . . ."

وبعد وفاته أرسلت أمي مبلغاً غير صغير إلى موسكو .

٢٢

مضت أربع سنوات . كنت وقتئذ قد تركت الجامعة ، ولم أعرف بالدقة ماذا أفعل بنفسي وأي باب أطرق . كنت أهيم ، وليس عندي ما أعمله ؛ وفي مساء جميل ، قابلت ميدانوف بالمسرح . كان قد تزوج ، والتحق بخدمة الحكومة ، لكني لم ألمس فيه تغييراً .كان قد غرق في الملذات على نحو مسرف كعادته ، لكن أدركه الغم فجأة .

قال لي خلال الحديث :

– إن مدام دولسكي هنا ، كما تعلم .

– ومن هي مدام دولسكي ؟

– أيمكن أن تكون نسيتها ؟ الأميرة الصغيرة زاسيكن ، التي كنا جميعاً نحبها ، وأنت أيضا . أتذكر المنزل الريفي بالقرب من حدائق نسكتشني ؟

– هل تزوجت رجلا اسمه دولسكي ؟

– أجل .

– وهل هي هنا في المسرح ؟

– كلا . بل هي في بطرسبرج . أتت هنا من أيام قلائل ، وسترحل إلى الخارج .

فسألته :

– أي فتى زوجها هذا ؟

– فتى رائع ، ذو أملاك . إنه زميل لي في موسكو . أنت تدرك أنه بعد الفضيحة . . . لا بد أنك تعلم الأمر كله (وابتسم ميدانوف بسمة ذات مغزى) كان عسيراً عليها أن تحصل على زيجة طيبة .فقد كان لفضيحتها نتائج . . .لكنها كانت بذكائها تستطيع أن تفعل كل شيء . . . اذهب لتراها . وسيسرها أن تراك . إنها الآن أجمل منها في أي وقت مضى .

وثارت في نفسي ذكريات قديمة . . .وعزمت على الذهاب في اليوم التالي لأرى "حبيبتي" السابقة .لكن حالت دون ذلك بعض المشاغل . ومضى أسبوع وتلاه أسبوع آخر ،فلما ذهبت أخيراً إلى فندق دموت ، وسألت عن مدام دولسكي ، علمت أنها ماتت منذ أربعة أيام ، ماتت فجأة وهي تضع طفلاً .

شعرت بما يشبه الطعنة في فؤادي – آلمتني هذه الفكرة المرة : أني ربما استطعت أن أراها ، ولن أراها أبدا . آلمتني هذه الفكرة بكل ما فيها من تأنيب قاهر . كررت "لقد ماتت!" وأنا أحدق في غباء إلى الخادم المكلف في البهو . اتخذت طريقي ببطء إلى الشارع ، وسرت وأنا لا أدري إلى أين أسير .

وطفا الماضي كله فجأة ، فبدا أمامي . إذاً كانت تلك هي الخاتمة ، وكان ذلك هو الهدف الذي تعجلته وثارت من أجله ، هذه الحياة الشابة الحارة المشرقة! أطلت التفكير في هذا ؛ تخيلت تلك الملامح العزيزة ، وهاتين العينين ، وتلك الخصلات – تخيلتها في النعش الضيق ، والظلمة الرطبة في بطن الأرض – ترقد هناك ، غير بعيد مني ، ولعلها كانت على بضع خطوات من أبي – بينما ما زلت حياً . . .فكرت في هذا كله؛ وأجهدت خيالي ، لكن هذا البيت ، ظل صداه يتردد في أنحاء قلبي :

ألقت إليَّ شفاها غير عابئة بنعيها ، وفؤادي لا يعي شيا

أيهـذا الشـبـاب! أنت لا تـهـتم لشيء . أنت سـيـد كنوز العـالم – حـتى الأسى يهبك السعادة ، والحزن تستمتع به .

إنك عات واثق بنفسك . أنت تقـول "انظر!–أنا وحدي من أعيش!" لكن أيامك تمضي وتـزول ، ولا تترك أثراً أو حسـاباً ؛ وكل شيء فيك يزول ويتلاشى ، كالشمع في أشعة الشمس ؛ أو كالجليد . . .

ولعل سـر فـتـنتك ، يكمـن في ظنك القـدرة على كل شيء ، لا في قـدرتك على كل شيء ، يكمن في أنك تـنشـر مع الريح قـوى لا يمكنك أن تفيد منها ، يكمن في أن كلاً منا ، يعتقد جادا أنه مسرف متلاف ، وأن له حقا أن يقول "أوه! أي شيء كان يستعصي عليّ– لو لم أضيّع أيامي!" .

وأنـا الآن . . . أي أمل كنت أرجـوه ، أي شيء كنـت أتوقـعـه ، أي مستقبل حافل كنت أتنبأ به ، حين ومض أمامي طيف غرامي الأول ، فلم يبعث فيّ زفرة واحدة ، ولم أشعر بإحساس حزين ؟

وما الذي بلغتـه الآن ، من كل مـا كنت أرجوه ؟ الآن أسائل نفسي ، حين تبـدأ ظلال المسـاء تنسل إلى حـياتي ، أي شيء خلفتـه ، كان أعذب وأغلى من ذكريات العاصفة التي مرت بي سريعاً ، عاصفة الصباح الباكر ، والربيع ؟

لكـني أظلم نفـسـي . لم أكـن – حـتى في تـلك الأيام الفـتـيـة التي عـشـتـهـا بقلب خلّي– لـم أكن أصم عن صـوت الحـزن حين ناداني ، عن النغم الحزين الذي يسري إليّ من وراء المقبرة .

أذكر أنه بعد أن بلغني موت زينايدا بأيام قلائل ، . . .دفعني دافع خاص قاهر ، لأشهد وفاة امرأة عجوز مسكينة ، كانت تعيش في البيت الذي نقيم فيه . كانت ترقد فوق ألواح جامدة تغطيها خرق بالية ، وتحت رأسها حشية ، وعلى تلك الحال ، ماتت تعاني وتتألم . لقد انقضت حياتها كلها في كفاح شاق مرير ، كفاح من أجل القوت . إنها لم تعرف فرحة، ولم تذق طعماً للسعادة . ولو ظن المرء حقا أنها تسعد بموتها وخلاصها

وراحتـهـنا ، لكان له الـعـذر في ظنه . لكن هذه المرأة الـعـجـوز ، ظلت ترسم الصليب وتهمس :

- اللهم اغفر لي خطاياي!

ظلت تـفـعـل هذا ، مـا تماسك جـسـمـهـا العـاجـز ، ومـا عـلا صـدرها وهبط ، تحت تلك اليد الباردة التي كانت تثقله ، حتى فارقتها آخر قواها . كان في عينيها نظرة خوف وفـزع من النهاية ، ولم تختف هذه النظرة إلا في الـومـضـة الأخـيـرة من وعـيـهـا . وأذكـر أني كنت بجـانـب هذه المرأة العجوز ، وهي على فراش الموت ، فأحسست بفزع على زينايدا ، وتمنيت لو أصلي لها ، ولأبي- ولنفسي .

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية، توزع مجانا مع ثماني صحف عربية، تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة.. بكلفة لا تثقل عليه. كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع تتنازل عن حقوقها لصالح القارئ.

القاهرة مصر الأيام البحرين البيان الإمارات

القبس الكويت الحياة السعودية السفير لبنان

الثورة سورية

